

A painting of a city street at sunset. The sky is filled with warm, golden and orange hues, with some darker, purple-tinged clouds. The street is lined with multi-story buildings and trees. In the foreground, a woman wearing a brown hijab and a dark coat is seen from behind, walking away from the viewer. She is carrying a small basket or tray in her hands. Other people are visible in the distance, walking along the street. The overall style is that of a soft, painterly illustration.

رواية
**أولاد
حرام**

محمد علي الديباسي

أولاد حرام

تأليف

محمد علي الدباسي

2026

اسم العمل: أولاد حرام

اسم الكاتب: محمد علي الديباسي.

التدقيق اللغوي: محمد علي الديباسي.

بريد إلكتروني للمؤلف: maldubasi@gmail.com

تواصل اجتماعي: m19aldubasi

تصميم الغلاف: الأستاذة رحاب علي

المسؤول الفني: الأستاذة يارة السباعي.

رقم الإيداع: 2026/15914

الترقيم الدولي: 978-633-8545-05-5

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة للمؤلف ولدار رونق للنشر والتوزيع ، ولا يحق لأي دار نشر طبع ونشر وتوزيع الكتاب أو ترجمته أو الاقتباس منه أو نشره على النت إلا بموافقة كتابية وموثقة من المؤلف أو دار رونق للنشر والتوزيع.



01021484825

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

اعتذار

تعتذر سماح للتلميذ الذي أضع دفتره؛ بسبب جراءة، وقسوة
بعض المشاهد التي سطرته على ذلك الدفتر، وأعتذر لكم على
نقل الحقيقة.

الرواية:

خرج المعزون مغادرون، وكان عليّ أن أودعهم عند الباب.
كانت مهمتي الأخيرة في هذا اليوم، وكان لزاماً عليّ أن أنهي
كل هذه الطقوس وحدي.

كلهم غادروا وتركوني وحيدة، لا أقصد هنا من قدم للتعزية،
فهم قد أدوا واجبهم، وخرجوا بمجاملات دون عواطف حقيقية
يشعرونني بأنهم بجانبني فعلاً، فليست هنالك مصالح تجمعهم
بي، لكنني أقصد من كان يفترض أن يبقوا هنا للوقوف معي، أو
بمعنى أكثر دقة، من يتقاسموا معي هذا الحزن.

لقد غادروا المنزل قبل خروج بقية المعزيين!

هي أهمهم كما هي أمي، لكنه كان لزاماً عليّ أن أتحمل حزن
وفاتها وحدي.

ولماذا لا تتحمل ذلك وحدها؟

أليست هي متفرغة الآن لأن تحزن؟

كانت نظراتهم تجاهي تقول ذلك قبل أن يغادروا.

أنا وحيدة، ليس لدي ما يشغلني، وهذه تهمة بالنسبة لهم.

الحياة ومشاعلها تنتظرهم.

لا بد لي من التعود على النوم وحدي في هذا البيت الكبير.

بيت العائلة.

البيت الذي جمعنا جميعًا لعقود، ولا أظن أنه سيجمعنا ثانيةً مرة أخرى.

في هذا البيت كانت نشأتي، وفي ملحقه الصغير كانت تسكن أُمِّي، كما قال لي ذلك أُمِّي، فهي الزوجة الثانية له.

أُمِّي التي ماتت بعد أن ولدتني مباشرة، فربتني أُمِّي الثانية؛ نورية، والتي أتلقى عزاءها الآن.

أُمِّي التي عشت معها عمري كله.

أرضعتني من ثديها مع سمير؛ والذي كان يكبرني فقط بثلاثة أشهر.

أحببتي، وعظفت عليّ، وعدتني خامس أبنائها.
كبرت مع إخوتي خالد، وأنور، ونعمة، وسمير.
كل شيء في هذا البيت لي فيه الكثير من الذكريات.
كل ركن من أركانه، وكل تحفة من تحفه النادرة التي حرص
أبي على أن تكون جزءًا من هذا البيت.
كان أبي يحب التحف كثيرًا، وكان يحضر واحدة معه كلما عاد
من سفره، أو سمع عن وجودها في أحد محلات المدينة.
لم يكن أبي يسافر إلا لعمل قد يضطره لذلك، فهو لا يحب أن
يغادر البيت، لذلك جميعنا كنا متعلقين به، وكانت أمي تهتم بتلك
التحف، وتلمعها دائمًا، فهي مرتبة في كل شيء.
ما أجمل بيتنا، وما أجمل ذكرياتي فيه.
كم أتمنى أن أتزوج في هذا البيت.
كم أتمنى ألا أغادره أبدًا.
لا أعتقد بأن أحدًا من إخوتي سيعترض على ذلك، فقد تزوجوا
وخرجوا جميعًا من البيت، وبقيت فيه أنا وأمي نورية.
الساعة تشير إلى التاسعة مساءً.

أتذكر ذلك اليوم الذي اشترى فيه أبي هذه الساعة، ووضعها على هذا الحائط.

كان ذلك قبل عشر سنوات.

ياااه، لقد مضت السنوات سريعًا.

كان أبي وقتها يلقي علينا محاضرة بأهمية الوقت؛ وهو يضبط عقارب هذه الساعة؛ قبل أن يعلقها على الحائط، وكانت أمي تستعجله لتناول طعام العشاء.

كانت أمي دقيقة في الوقت أكثر من أبي، لكن أبي كان أكثر تدليلاً لنا أنا وإخوتي من أمي.

كانت أمي حريصة على أن نكون أكثر انضباطاً، وكان أبي يفتح لنا مساحات لنفعل ما نريد.

كُنت ابنته الصغرى، وتفاحة روجه كما كان يقول، لذلك كان يدللني أكثر من إخوتي.

إخوتي.. كم اشتقت إليكم جميعاً، صحيح أنهم كانوا هنا منذ ثلاث ساعات، وصحيح أنني كنت أراهم عندما كانوا يزورون أمي في مرضها الأخير، لكن كانت هنالك مسافات كبيرة بيننا.

لم تكن تلك المسافات بيننا قبل وفاة أبي، بل صنعتها الأيام، أو هم من صنعها.

لماذا نلوم الأيام على كل تقصير يصدر منا؟

لماذا لا نعترف بأننا نحن السبب؟

نحن من أوجدناها..

لم التبريرات؟

هل نحن نبرر لنبعد التهم عنا؟ ونريح ضمائرنا؟

هل فعلاً نشعر برضى داخلي ونحن نبرر؟ أم هو هروب؟

أحياناً يكون الهروب راحة، لكن ليس كهكذا هروب.

هروب من أخطاء نرتكبها بسبب تقصيرنا؛ حتى نبتعد عن المسؤولية.

هل الحب مسؤولية؟

لماذا نعتبر الحب مسؤولية؟

بل هل الكره هو كره لذاته؟ أم لأننا نريد أن نهرب من خلاله عن تبعات الحب؟

لماذا نشعر بثقل كل عمل يزيدنا دفناً؟

يااه.. لم أنتبه بأنه يجب عليّ تنظيف المنزل.

لكنني مرهقة، ومتألّمة لفقد أُمي.

كيف يستطيع الإنسان مواجهة حياته مع كل تلك الأحزان التي

تحيط به؟

حياة رمادية قائمة أعيشها وسأعيشها، ورغم ذلك؛ لا بد لي من

أن أواجه الناس بوجهي الوردى الجميل.

يقولون بأنني جميلة.

لِمَ يربط الناس الجمال بالشكل؟

بالمظهر؟

أين هم عن الأخلاق وعن الطباع؟ أليست هي ما نقدمه للناس؟

لا أعتقد أنني سأعيش حياة جميلة بعد وفاة أُمي، لقد كانت كل

شيء في حياتي.

كم أتمنى لو يأتي أحد من إخوتي ليسكن معي في هذا البيت،

ونشعر بدفء العائلة من جديد.

كم أتمنى أن تكون لي عائلة.

بدأت أشعر بالوحدة.

يا ترى كيف ستكون عائلتي في المستقبل؟

كيف ستكون صفات زوجي؟

ماذا عن ابني أو ابنتي؟

سأريهم، وأعلمهم.

لن أجعلهم يتفرقون مهما اشتدت عليهم الظروف.

سأعلمهم كيف يكون الحب؟

هل الحب يُكتسب؟ أم هو فطري؟

هل هو وسيلة أم غاية؟

لو كان الحب وسيلة فهو لتحقيق مصلحة، وهنا لا يمكن أن

نسميه حبًا، لكن هل من الممكن أن نسميه حبًا لو كان غاية؟

هل نحب لأننا نحب؟ أم لأننا نريد أن نحب؟

بالتأكيد هنالك فرق.

صوت الباب!

من سيأتي في هذا الوقت؟

لعلمهم إخوتي..

لعلهم يرغبون بالمكوث عندي والسكن.

سأرتب البيت سريعًا؟

سأنظفه..

بل سأفتح أولاً.

لا، لا .. بل سأرتب شكلي.

لا، لا.. سأتأخر عليهم، سأفتح الباب.

لم أكن أظن أنني سأبتسم بعد وفاة أمي، لكن يبدو أنني ابتسمت سريعًا.

ألهذا الحد أحب إخوتي؟

ذهبت سريعًا وفتحت الباب.

لم أتردد في فتحه كاملاً.

وكيف لا، وأحد أخوتي بالتأكيد عند الجهة الأخرى من الباب.

فتحت الباب، ولا أدري هل فتحته أولاً أم أغلقته؟

هل رأني أم لا؟

فجأة ذهبت الابتسامة، وبدأ القلق.

هل رأني؟

من أنت؟ وماذا تريد؟

قلتها من خلف الباب بعد أن أغلقتة.

رد عليّ بصوته الجهوري: أنا صاحب المنزل.

- أي منزل؟!
- هذا المنزل الذي أنت فيه.
- أجنتت؟ هذا منزلنا.
- أريد أن أتسلم المنزل، لقد تركتك تعيشين فيه أنت وأمك طوال فترة مرضها بحسب رغبة إخوتك.
- إخوتي؟!
- نعم، لقد باعوني المنزل، لقد اتفقت معهم جميعاً، وكان لدى شقيقك خالد وكالة منك، أنت وأمك بالتصرف بالأموال، وهذا صك البيع، وهذا رجل من الشرطة؛ أحضرته معي؛ حتى لا تظني بأنني لص.
- ما المطلوب مني؟
- أن تسلميني البيت.
- كيف ذلك؟ لا بد أن أتحدث مع إخوتي أولاً، و..
- أريد المنزل الآن، هذه مشكلتك أنت مع إخوتك.

- لكن الوقت متأخر الآن كما ترى.
- خذي ما تريدين من أغراض تخصك؛ واتركي لي المنزل، فقد اشتريته بأثائه.

ناولني عقود موثقة تثبت ملكيته للمنزل بأثائه، مع خطاب من المحكمة بالإخلاء!

اطلعت عليها، ثم أعدتها إليه؛ وأنا مصدومة؛ لا أكاد أصدق.
كانت ليلة عصبية بالنسبة لي، فגיעة فقد أمي مازلت أعيشها؛
ليأتي خروجي من المنزل.

لا أدري ماذا أفعل!

أو كيف سأصرف.

هل حقًا باع إخوتي المنزل؟

لقد رأيت توقيعهم، وتوقيع نعمة.

ربما أحلم.

ربما أرادوا أن يمزحوا معي.

وهل الشرطي كذلك يمزح؟!

اتصلت على إخوتي، ولا أحد منهم يرد.

كررت الاتصال.. لا فائدة.

ربما نائمون.

لكن الرجل مُصر على استلام المنزل الآن، ومعه الشرطي
ينتظر.

أصبحت في حيرة من أمري.

استأذنت لدقائق حتى آخذ ما أستطيع من ملابس، وكيف لتلك
الدقائق أن تكون كافية لوداع أعمارنا!

نظرت إلى البيت، وحالت دموعي بين عيناوي وبين تفاصيله.

دخلت غرفتي للمرة الأخيرة.

نظرت إلى سريري لأتأكد بأنني لست نائمة، ولست أحلم.

فتحت خزانتي، وأخذت ملابسي معي، ثم توجهت إلى غرفة
أمي وأخذت ملابسها كذلك؛ ووضعتها في حقيبة كانت معي،
وخرجت.

خرجتُ من المنزل..

كانت الساعة تشير إلى العاشرة والنصف مساءً، فقد كان آخر ما نظرت إليه قبل خروجي هي ساعة والدي التي علقها على الحائط.

تمنيت لو كنت أستطيع أن أخذها معي.

ما بالهم فرطوا في كل شيء، وبكل هذه السهولة؟

ماذا عن التحف التي كان يجمعها أبي لسنوات؟

هل فرطوا بها مقابل مبالغ رأوا بأنها ستضيف إلى رصيد كل واحد منهم؟

هل من الممكن للمرء أن يبيع ذكرياته؟

لماذا لم يفكروا بي؟

ربما اتفقوا على أن أسكن عند أحدهم.

ربما خافوا عليّ من الوحدة.

لا يهم المنزل طالما سأسكن مع أحدهم، المهم أنني لن أكون وحدي، فالحياة لا تساوي شيئاً بعيداً عن دفء العائلة.

كان الذهاب إلى بيت أخي الأكبر خالد هو أول قرار اتخذه بعد خروجي من المنزل.

خالد هو أخونا الأكبر، ويعمل مدرساً في مدرسة ثانوية قريبة من منزله، فقد فضل التعليم على أن يعمل في شركة والدي، رغم كونه الأبن الأكبر لوالدي.

كانت معي حقيبة صغيرة، بها بعض ملابسني، وأدواتي الشخصية، ومنديل أمي، ووضعت بقية ملابسني، وملابسي أمي عند جارتننا.

طرقت باب منزل خالد، وكنت متعبة.

كنت متألّمة، ولا أريد إلا أن أريح جسدي في بيت أخي، وغداً لكل حادث حديث.

فتح خالد الباب، وسألني: ماذا بك يا سماح؟ ما الذي جاء بك الآن؟

سماح: هل من الممكن أن أدخل الآن لأبيت عندكم؟

خالد: للأسف غرفة الضيوف بها شقيق زوجتي نائم فيها، لم لا تنامين في المنزل؟ هل تخافين النوم وحدك؟

سماح: جاء رجل، ومعه صك، وأخرجني من المنزل.

خالد: نعم، صحيح، لقد بعنا المنزل، الوغد.. لماذا لا يريد أن ينتظر فترة أخرى.

سماح: كيف تبيعونه دون أن تخبروني؟

خالد: لا شأن لك بالبيت، فأنت فتاة ستتزوجين في أي وقت، كنا بحاجة لبعض المال.

سماح: ولكن.

خالد: اذهبي إلى بيت أنور، بيته واسع، اعتذر، أنا متعب الآن، ولا بد لي من أن أنام، فلدي عمل في الغد.

أغلق خالد الباب؛ وكأنه أغلق كل وسائل التواصل بيننا.

وكانه بذلك يريد إخباري بأن ليس هنالك ما يجمعنا بعد أن ماتت أمنا.

تعجبت من تصرفه!

هل من الممكن أن تنتهي العلاقات بهذه السرعة؟!

هل جفت دماؤنا؟ لم أتخيل أبدًا ما حدث!

حتى أنه لم يفكر بأن يوصلني إلى منزل أنور في مثل هذا الوقت من الليل.

مشيت إلى أن وصلت إلى منزل أنور، فهو لا يبعد كثيرًا عن منزل خالد.

هو أكبر قليلاً من منزل خالد، ذلك أن أنور يملك شركة للاستيراد والتصدير، ويدير كذلك شركة أبي، ويقوم سنويًا بتوزيع أرباحها علينا جميعًا، لكن نصيبي كان يعطيه لأمي كما كان يقول.

لا أعتقد أنهم نائمون، فالأضواء تظهر من نوافذ المنزل.

طرقت الباب بسرعة، فلم أعد أستطيع تحمل برد المدينة.

فتح لي ابنه علي الباب، وكان شديد الفرح لحضوري، ودعاني مباشرة إلى الدخول؛ ومشاركتهم مشاهدة فيلم سينمائي رائع.

تعجب علي من دخولي دون أن أتحدث له بكلمة، فقد تعود على مزاحي الدائم معه، فهو أقرب أبناء إخوتي إليّ، وأكثرهم لي حبًا، إنه صديقي أكثر من كونه ابن أخي.

سماح.. ما الذي جاء بك؟

قالها لي أنور وهو يشاهد التلفاز، ويتناول طعام العشاء؛ مع زوجته، وأبنائه.

سماح: لقد بعتم المنزل يا أنور دون إخباري؟

أنور: كانت هنالك بعض الأمور حتمت علينا بيع المنزل.

سماح: ونصيبي؟

أنور: هل تفكرين في الميراث، وتربية أمنا مازالت مبتلة؟

سماح: وهل فكرتم أنتم بها وبمرضها عندما بعتم المنزل؟ بل

هل فكرتم بي، وإلى أين سأذهب؟

أنور: كنا بحاجة إلى المال، فلدينا التزامات كثيرة لا بد وأن نوفي بها.

سماح: وأنا؟

أنور: أنتِ فتاة، ولن تخالفي رأينا، ثم أن المنزل هو من حق والدي، تزوجها أبي فيه، نامي الآن في الملحق، وغداً ابحتي عن مكان لتنامي فيه، فالببيت صغير كما ترين.

صعد أنور إلى غرفته دون أن يزيد بكلمة واحدة، واقترح ابنه علي بأن أنام في غرفته، وسيذهب هو لينام في الملحق، لكنني شكرته، واعتذرت.

هل يتوقع أنور أن أقضي ليلتي في منزله بعد الذي قاله لي؟ وبعد أن طلب مني مغادرة منزله غداً؟

ألم يفكر كيف لفتاة لم يمضي على تخرجها من الجامعة عدة أشهر، وماتت أمها قبل أيام، أن تعيش بلا مأوى؟
من سيستقبلها؟

ليس لنا عم، ولا خال في المدينة لأذهب إليه؟
هل أذهب إلى القرية التي لم نذهب إليها طوال عمرنا؟
انطفأت أنوار البيت، وخذ الجميع للنوم، وخرجت أبحث عن مصيري.

هل أذهب إلى نعمة؟ لكن زوجها لن يقبل بمكوثي معهم.
صحيح أن نعمة كانت صديقتي المقربة قبل أن تكون أختي،
لكنها تغيرت عليّ كثيرًا منذ وفاة أبي.

إنها لم تتصل بي منذ شهرين، وعندما كانت تزور أُمي في مرضها لم تكن تتحدث معي كثيرًا، حتى في أيام العزاء استقبلت المعزيات وحدها، وكانت تطلب مني مباشرتهن بالقهوة، والماء، والتمر، ثم غادرت في اليوم الأخير، وتركتني وحدي لهم.

هل أذهب إلى سمير؟

نعم، سأذهب إليه..

لا يضر لو كان عريساً تزوج منذ فترة قريبة، فأنا بحاجة، ولن يردني بالتأكيد.

يعمل سمير ككاتب لأنور في شركة والدي، ومنزله لا يبعد كثيراً عن هنا.. إنه يتصل بي.

سماح: مرحباً سمير، كيف حالك؟

سمير: اسمعي يا سماح، لقد علمت أنك خرجت من المنزل، حاولي أن تذهبي إلى نعمة؛ وتأمين عندها الليلة، منزلي صغير كما تعلمين، وربما أسافر خلال هذا الأسبوع مع زوجتي، فنحن لم نستمتع بشهر العسل بسبب مرض أمي الأخير.

لقد أخبره إخوتي ببحثي عن مكان لأبيت فيه، ولذلك لم ينتظر حتى حضوري إلى منزله.

لم يكن أمامي سوى نعمة.

سأتصل بها الآن.

ردت عليّ مباشرة، وكأنها كانت تنتظر اتصالي بها:

أرجوك يا سماح، لا تفكري بالمبيت عندي، فزوجي لا يحب استضافة أي أحد، ولو لليلة واحدة، وأنا مشغولة بأطفالي، فكري بالمبيت عند أحد من إخوتي، حاولي مرة أخرى بطلب المبيت عندهم، وسأخبرهم للبحث لك عن حل، لكن ماذا لو قدمتي طلبًا للسكن في أحد الأربطة؟ اذهبي إليهم الآن وسيوافقون فورًا على طلبك، وسيقدرون ظرفك، وسأحاول مع أنور بأن يمنحك بعد ذلك شقة في عمارته التي بينها.

أذهب إلى الأربطة الخيرية؟

هكذا وبكل سهولة؟

هل كان هذا اقتراحها؟ أم هم من اقترحوا عليها ذلك؟

ألست أختهم الصغرى؟

ماذا سيقول الناس؟

ابنة التاجر عبدالله تبحث عن سكن خيري!

هل من الممكن أن ينام أحدهم وهو لا يعلم أين سأضع رأسي؟

أين سأبات ليأتي؟

هل توكل كل منهم على الآخر؟

بهذه البساطة أصبحت ثقيلة عليهم؟

ربما أنني أحلم.

نعم أنا أحلم.

هذا كابوس ليس بحلم.

كيف أستيقظ منه؟

لم أسمع من قبل بأن هنالك أخوة تخلوا عن أختهم، لكنني أشاهد ذلك الآن، وأتمنى أن يكون كل ذلك حلمًا، أو مزحة ثقيلة من إخوتي.

أول ليلة أقضيها في الشارع دون منزل.

حقيبة صغيرة فقط بيدي، فيها كل ما أملك، بل أصبحت هذه الحقيبة هي بيتي المتنقل.

النقود التي معي لن تكفي لأكثر من يومين، لأكل وشرب فقط، فلم يكن لدي سواها، فالشهر قارب على الانتهاء، ويفترض أن يرسل لي أنور بعد يومين مصروفي الشهري لأول مرة، فقد كان يرسله قبل ذلك على حساب أمي، لكن كل ذلك لا يهمني، لأنني متيقنة بأنهم سيتصلون بي في الصباح لطلب عودتي إلى منزل أحدهم.

لكن.. ماذا لو لم يتصل أحد؟!!

لا أعتقد ذلك أبدًا، مستحيل!

لكنني الآن في الشارع، ولم يفكر بي أي أحد منهم.

هل حقًا تشتت أسرتنا؟

لا.. أنا فقط من أصبحت طريدة الشوارع، فكل من منزلهم الخاص به؛ وأسرته الجديدة.

أين سأبات هذه الليلة؟

لابد لي من أن أبحث عن فندق قريب.

لأول مرة أبات في هذه الفنادق التي وُجدت فقط للغرباء.

كنت أظن وأنا صغيرة بأن هذه الفنادق وجدت للذين ليس لديهم أحد، تمامًا مثلما كنت أظن بأن طاولات المطاعم هي للذين لا يملكون أمًا تطبخ لهم.

الإضاءة خافتة، وبعض لمبات الشوارع لا تعمل، رغم أننا في حي راقٍ، ويبدو بأن أعمدة الإضاءة تمارس نفاقها لأهل الحي هنا؛ فلا تضيء في هذا الوقت إضاءة عالية؛ لأنها تخشى من أن تعكر عليهم نومهم.

حي جميل نسكنه، يقال بأنه لصفوة أهل البلد، وفيه جميع إخوتي، رغم أن بيوتهم في شوارع مختلفة من هذا الحي.

لماذا تختلف الأماكن، والشوارع؟

لم لا تتساوى البيوت؟

ألم يكن بإمكانهم أن يبنوها بنفس الجودة، والجمال في كل شوارع المدينة؟ ويصممونها تصميمًا رائعًا ومميزًا، ويقومون كذلك بنشجيرها كما هو الحال في هذه المناطق الراقية؟

إذا كان الفقر كما يقولون هو مشكلة الفقراء فلماذا لا نقول بأن الشوارع هي مشكلة الحكومة؟

قرأت بأن الاشتراكية تساوي بين الناس، إذاً لماذا كان يكرهها أبي؟ على الأقل سنتساوى في المعيشة كشعب، لكن ماذا عن الساسة؟

هل يشملهم ذلك؟

يبدو أن وحدتي جعلتني أتحدث في كل شيء، ولا ينقصني إلا أن يجلبني ذلك المذيع على قناته.

لا أفهم كثيرًا في السياسة، ولا أحب الحديث عنها، وأحاول أن أتجنبها قدر استطاعتي، لكنها رغم ذلك تتدخل في خصوصياتنا.

صنعت منا أغنياء وفقراء.

لا.. لا.. بل صنعت منا مستفيدين، ومعدومين.

هل حقًا بأن أبي جمع ماله من عمله في الحزب الحاكم؟

ماذا لو أنني انتميت إلى حزب آخر، غير الذي كان ينتمي إليه أبي؟

بدأت أشعر بالبرد.

هل ذلك بسبب برودة الطقس؟ أم لأن من يفكر بالسياسة يأتيه
هواء بارد كما يقولون؟

ربما!

كيف سأصرف الآن؟

أصبحتُ غريبة في مدينتي.

سأجرب وأسأل عن غرفة في هذا الفندق.

- سيدي، هل أجد لديكم غرفة؟

- بالطبع، فقط بمائة وسبعين ورقة.

كان مبلغًا بسيطًا، لكنني نظرت إلى ما أملك من نقود، وسألت
نفسي:

هل من المعقول أن أصرف نصف ما أملكه على مبيت ليلة؟!!

كنت سأدفع المبلغ، وأبات ليلتي على كل حال، لكن لا أدري لم
خشيت أن يتأخر إخوتي عن التواصل معي، وأكون قد صرفت
كل ما أملك من مال.

خرجت من الفندق بحثًا عن آخر؛ يناسب ما أحمله من نقود.

أخذت بالتجول في شوارع المدينة.
مضت ساعة وساعة، ولم أجد مكانًا لأبيت فيه.
اقترب الفجر، لذا فضلت بأن أذهب إلى مسجد قريب؛ وأدخل
إلى مصلى النساء.
ما زال الجو باردًا، هل كان كذلك الليالي الماضية؟
ربما لم أشعر به بسبب دفيء بيتنا.
دخلت المسجد، ولم أشعر إلا والمسؤولة عن نظافة المسجد
توقظني، فلم يبق إلا دقيقة واحدة على إقامة الصلاة.
ذهبت لدورات المياه، وأعدت وضوئي، وصليت معهم.
خرجت عند شروق الشمس من المسجد، ولا أعلم أين ستكون
وجهتي بعد ذلك؛ وأخذت أمشي مرة أخرى بين الشوارع.
بدأت الحياة تدب في المدينة.
الكل ذاهب إلى عمله، والطلاب إلى مدارسهم.
تذكرت تلك الأيام التي كنت أذهب فيها إلى المدرسة.
كانت أيامًا جميلة.

كنت أحلم بأن أصبح محامية لأجل أن أدافع عن الضعفاء،
والمظلومين، وأحياناً كنت أفكر في أن أصبح طبيبة، خاصة
عندما طلب مني أبي ذلك.

تمنيت أشياء كثيرة في حياتي، وكان أبي يحققها لي.

كم افتقدتك يا أبي.

نظرت أمامي..

آه.. إنها محطة القطار.

لم لا أركب معهم إلى العاصمة؟

اشتقت لأن أرى البحر.

أخذت أفكر..

لم يعد لي شيء هنا.

لكن ماذا لو استيقظ إخوتي هذا الصباح؛ وهم يشعرون بالندم

وبحثوا عني؟

ماذا لو قالوا بأن النعاس هو من جعلهم يتصرفون معي هكذا

ليلة البارحة؟

وهل كان النعاس يسيطر عليهم منذ فترة طويلة، عندما باعوا

منزلنا، دون التفكير في مصيري؟

بل هل كانوا بحاجة إلى أن يبيعوا المنزل؟

هل كان ينقصهم مال، أم أرادوا شيئاً آخر؟

أخذت أفكر، وأفكر.

قررت أخيراً!

نعم..

سأركب القطار، وأغادر إلى العاصمة، وهم على كل حال

سيتصلون على هاتفي عندما يريدون التواصل معي.

دخلت المحطة، وكانت مليئة بالمسافرين.

لكل منهم وجهته.

لأول مرة أسافر بالقطار، فقد كنت أسافر مع أسرتي دائماً بالطائرة.

تختلف محطة القطار كثيراً عن المطار، فهنا نجد وجوهاً لم نكن نراها في المطارات.

هنا قد نجد البؤساء، لكنهم يبتسمون لي رغم مظاهر الغنى التي تبدو عليّ.

لا أدري لم لا نبادلهم نفس هذه الابتسامة عندما نجد بعضهم في المطارات رغم أن ملابسهم مرتبة ونظيفة؟

ورغم لباقتهم؟

لم لا نبادر كذلك بتقديم المساعدة لهم، كما هم يفعلون معي ذلك الآن؟

هم لا يفعلون ذلك من أجل مقابل، بل لأنهم يشعرون بمن حولهم، فقد بادرت إحداهن بإعطائي زجاجة ماء لأنها شعرت بحاجتي لها؛ ورفضت أن تأخذ شيئاً مقابل ذلك.

لم كنا نعاملهم وكأننا نرفض تواجدهم بيننا؟
نتجنب أن نظهرهم في صورنا التي نلتقطها قبل صعودنا إلى
الطائرة.

لم يتصرف الأغنياء كذلك؟

لم نرى بأن الأرض قد بسطت لنا وحدنا دون غيرنا؟

هل لأننا كنا نخشى من أن يطلبوا منا شيئاً؟

لكن كرامتهم تبدو واضحة لنا.

يبدو أننا بخلاء حتى بمشاعرنا.

لم لا نفهم بأن الفقراء لم يختاروا فقرهم، تماماً مثلما الأغنياء لم
يختاروا غناهم؟ حتى وإن بذلوا من أجل ذلك؟

كنت أتأمل وجوه المسافرين وأسأل نفسي:

هل هم من اختاروا وجهتهم؟ أم أن الظروف هي من حددت لهم
تلك الوجهة؟

كثيرون يرون بأن السفر وجهة سعادة، والأكثر منهم من يهرب
بسفره من ألم نفسي، أو يذهب لعلاج ألمه الجسدي.

في كل محطة من محطات الطريق ركاب يصعدون، وآخرون
ينزلون.

تمامًا مثل هذه الدنيا؛ مغادرون وزائرون.

للسفر فلسفته الخاصة.

نفاصيله التي قد تضيف لنا عصارة هذه الحياة بمن نصادفهم في
طريقنا، وبكل أرض نطأ عليها بأقدامنا؛ ونخوض فيها تجربة
جديدة.

قد نعاني لو رأينا قطعة من عذاب، وسنستمتع بلحظاته لو
صُنعت فيها سعادتنا.

هل نحن من يصنع سعادتنا؟ أم أن المواقف هي من تصنعها
لنا؟

لا أحب كلام التنمية البشرية؛ من أن الإنسان يصنع لنفسه
سعادته، فقد تجبرنا الأيام لأن نكون في مكان لا نريده.

وها أنا ذا اليوم في مكان لم أتمنى أبدًا بأن أكون فيه.

أن أترك بيتي، ومدينتي، ويتركني إخوتي.

هل حقًا بأنه ربما تخبئ لي الأيام؛ أيامًا جميلة؟

كم أتمنى ذلك.

أخذت تذكرتي، وصعدت القطار.

أخذت أتأمل مرة أخرى وجوه المسافرين، وأقرأ قصصهم من خلال تلك الوجوه، وربما يعود ذلك لفضولي الصحفي الذي يجعلني أتأمل كل شيء حولي بدقة.

نعم، فقد كانت الصحافة والإعلام هي تخصصي في الجامعة، ويرجع ذلك بعد أن قررت أخيراً التسجيل في ذلك التخصص، فقد تبخر حلم كلية الطب بعد وفاة والدي، والذي رغب بأن أدخلها لأشرف على دراسة ومتابعة الحالات المرضية التي ترد إلى شركته، ويعالجها من زكاة ماله في مستشفيات المدينة.

رفض أخي أنور ذلك بعد وفاة والدي؛ حتى لا أحضر إلى الشركة، وأباشر العمل معه، ولم أستطع كذلك دراسة القانون بسبب رفض أخي خالد لذلك، ولا أعلم سبب إصراره عليّ بعدم دخولها، لكنه كان يقول بأنه لا يريد لأخته أن تنتقل بين أروقة المحاكم؛ لكنه قَبِل الآن بأن أبات في الشارع.

أخذت بتأمل تلك الوجوه، ثم بتأمل الطريق، والقرى التي نمر من خلالها.

مررنا بالكثير من المحطات التي كنا نتوقف عندها.

جلست أمامي سيدة، هي وابنها الصغير.

كانت تريد النزول في القرية التي قبل العاصمة، فهناك تعيش هي وأسرته.

جاءت إلى مدينتنا من أجل أن تعالج ابنها، رغم أن العاصمة كانت أقرب لها من مدينتنا.

تعجبت من ذلك، وازداد تعجبي أكثر حين علمت بأن سبب ذلك هو أخي أنور، فقد تكفل بعلاج ابنها من خلال شركة أبي التي تتكفل بدفع نفقات العلاج من وقت لآخر للفقراء الذين يتقدمون بطلب ذلك.

لم تكن تعلم تلك السيدة بأنني أخت أنور، وشريكة في تلك الشركة التي عالجت ابنها، وبأنني أبحث الآن عن مكان لأعيش فيه.

هل من الممكن بأن تمتد يد المساعدة للغرباء، دون الأقربين؟

وهل ما كان سيقدمه أنور وبقية إخوتي لي هو مساعدة؟

هل ضاع حقي في البيت، والشركة وسط تعنتهم؟

أعتقد بأن كل شيء سينتهي حال اتصال إخوتي بي، وبطلبهم
عودتي لأسكن معهم.

سأعتبر ذهابي إلى العاصمة نوعاً من السياحة، فغداً، أو ربما
اليوم سيتصل إخوتي بي لا محالة.

كانت المسافة طويلة جدًا حتى وصلنا إلى العاصمة، والتي كانت محطة القطار بها أكبر من محطة مدينتنا.

الوقت يقترب من الثانية بعد الظهر، والشمس مازالت ترسل حرارتها إلينا؛ رغم بعض السحب التي تحاول أن تحول بيننا وبين تلك الشمس.

لا أدري أين ستكون وجهتي بعد وصولي إلى العاصمة، ولم أشعر بضيق بسبب ذلك، فأول مرة أشعر بالحرية.

أخذت أتجول بين الشوارع، والتي لا تختلف كثيرًا عن مدينتي، سوى بشاطئها الجميل، والذي سأزوره بالتأكيد في رحلتي هذه، فقد جئت إلى هنا من أجله.

شعرت بالجوع.

تذكرت بأنني لم أتناول شيئًا منذ البارحة، وشعرت كذلك بالإرهاق، فلم أنم إلا ساعة واحدة كانت في المسجد قبل صلاة الفجر.

أخذت أنظر إلى المحلات، فلعلي أصادف مطعمي المفضل. جذبني مطعم لبيع اللحم المشوي برائحته الزكية، فقررت أن أتناول طعامي منه.

دخلت المطعم، ويبدو من ديكوراته بأن أسعاره معقولة، وهذا ما كنت أبحث عنه، فمن غير المعقول أن أصرف كل ما أملك على وجبة غداء.

طلبت وجبة لحم مشوي مع الخبز الأسمر، وسلطة خضراء، وعصير، لأنني متمسكة بجدول الرجيم الذي صنعه لنفسه.

كلفنتي وجبة الغداء خمسة وثلاثون ورقة، أكلت منها حتى شعبت، ولم أشعر بنفسه، لذلك فكرت في النوم.

لكن؛ أين سأنام يا ترى؟

أخذت أتجول في شوارع العاصمة؛ وأسأل عن فندق يكون سعره معقولاً، فقد بدأت أشعر بقيمة الورقة الواحدة.

الأسعار هنا تبدو مرتفعة نوعاً ما، فالكل يريد العاصمة، وكان عليّ أن أبحث في منطقة أخرى.

كانت الأسعار في هذه المنطقة المتوسطة ما بين ستين إلى مائة ورقة، وأظن بأنها معقولة مقارنة بما رأيت من أسعار.

لم أستطع مواصلة البحث مرة أخرى، فقد كنت مرهقة بشكل كبير جداً، لذلك دفعت ستين ورقة، وصعدت مباشرة إلى غرفتي.

ارتيمت على سريري..

كانت الساعة تشير إلى الرابعة والنصف عصرًا.

أديت صلاتي، ودخلت في نومة عميقة.

كم كنت بحاجة إلى أن أنام، ولا أدري هل حاجتي كانت بسبب جسدي المنهك الذي كان بحاجة إلى أن يرتاح، أم لأعيش مع أحلامي التي كانت تنتظرني لتخفف عني ألم واقعي؟

في أحيان كثيرة نرغب بالابتعاد عن واقعنا.

وعن كل شيء.

بالمغادرة بعيدًا.. فالذي لا نستطيع تحقيقه بخطواتنا؛ من الممكن أن نعيشه بالهروب إلى أحلامنا.

في الأحلام قد نحقق ما عجزنا عن تحقيقه في واقعنا، لكنه سرعان ما يتلاشى حال استيقاظنا، لنعود ونعيش من جديد واقعنا المؤلم.

الواقع لا مفر منه، وعلينا أن نواجهه.

استيقظت في الخامسة صباحًا على صوت أذان الفجر.

لقد نمت ساعات طويلة، فقد كنت متعبة بشكل كبير جدًا.

صليت ما فاتتني من صلوات، وكم كنت بحاجة إلى الاستحمام لأجدد نشاطي، وأغير ملابسي.

فكرت بالخروج، لكنني فضلت المكوث في غرفتي.

لا أعلم سبب تفضيلي المكوث في غرفتي، هل لأنني لازلت مرهقة، أم بسبب أنني دفعت ثمن الغرفة لهذا اليوم، وأريد الاستفادة من كل ورقة دفعتها.

استلقيت على السرير، وأغمضت عيني.

استيقظت فجأة، ولمحت الساعة التي على الحائط، والتي كانت تشير إلى الحادية عشرة صباحًا.

قمت من مكاني، وأخذت حاجياتي، ونزلت إلى بهو الفندق لأسلمهم المفتاح.

سألني الموظف إن كنت سأجدد الليلة أخرى، فأخبرته بأنني قد أقرر ذلك في المساء.

خرجت..

نظرت إلى هاتفي.

لم يتصل بي أحد.

بحثت عن مطعم لأتناول فيه غدائي.

كنت حريصة على أن أجد مطعمًا رخيصًا في سعره.

لم أبذل جهدًا في البحث.

كان مطعمًا شعبيًا بسيطاً، لكن ليس به قسم للعائلات، لذلك

أخذت وجبتي ثم توجهت إلى الحديقة، وتناولت طعامي.

كانت وجبتي عبارة عن قليل من الأرز مع الملوخية، فقد

حرصت على عدم تناول اللحم للتقليل من تكلفة الوجبة

أخذت بعد ذلك بالتجول في المدينة.

اقترب المساء، وفكرت بالعودة إلى نفس الفندق، فلم أعد أملك

الوقت للبحث من جديد.

طلبت من موظف الفندق أن يجدد لي الليلة أخرى.

صعدت إلى غرفتي، ونمت مباشرة، فقد تعبت من المشي طوال

اليوم.

استيقظت فجراً، وصليت، ثم نمت ساعة أخرى.

صنعت لنفسني القهوة، ثم جلست أمام التلفاز.

كل شيء في هذه القنوات لا يبشر بخير، حروب هنا وهناك،
وتحدي دول عظمى لبعضها.

وفلسطين لازالت محتلة دون أن يتحرك لأجلها أحد.

كلهم يتعاطفون من أجلها، لكن ما فائدة المشاعر دون عمل
يثبت صدقهم؟

لن يعيد فلسطين التنديد، ولن تقوى علاقاتنا ببعضنا كلمات
السؤال عن الحال فقط.

نعبر عن اشتياقنا لبعضنا بالكلمات، دون أن نساند بعضنا عند
الحاجة، وإن حانت لنا فرصة؛ قد يقضي بعضنا على بعض.
هل سيكون حالي كذلك؟

سأكون مثل فلسطين بين إخوتي؟

قررت بعد ذلك الخروج من الفندق.

كانت الساعة تشير إلى الثانية عشرة والنصف.

صليت الظهر ثم خرجت، ولا أدري أين ستكون وجهتي.

أخرجت هاتفي مرة أخرى، لعل إخوتي قد اتصلوا بي؛ دون أن
أشعر.

للأسف لا أحد.

أعدته إلى حقيبتني، ثم أخذت أفكر في كيفية تدبير أموري.

كيف سأصرف.

من المستحيل أن أعود الليلة إلى نفس الفندق، فلن يبقى معي شيء، لكن قلت في نفسي ربما يتصل بي أحد من إخوتي هذا المساء، ولن أحتاج بعد ذلك إلى المبيت.

واصلت جولتي بين أسواق العاصمة.

كم هو رائع من أن يستكشف الإنسان أماكن جديدة، ولن يكون ذلك إلا بالتجول بالقدمين.

أتذكر يوم إن جئنا إلى العاصمة قبل سنتين، كنا نقطع الطريق ما بين الفندق والبحر بالسيارة، لذلك لم نستكشف جمال العاصمة، وجمال شوارعها.

مررت من أمام المتحف الوطني..

تمنيت لو أنني دخلته، لكن ثمن التذكرة كان مرتفعاً.

إنه تاريخ بلدنا، وحضارته، كيف لي أن أدفع مبلغاً كبيراً كرسوم دخول، ولماذا يجب عليّ أن أدفع مائلاً لأشاهد ذلك التاريخ عن

قرب، لم لا يكون على الأقل؛ مبلغًا رمزيًا، حتى يستطيع
الجميع مشاهدة ذلك التاريخ، والافتخار بالبلد، أم أن هذه
المتاحف وجدت للأغنياء فقط؟

اقترب الوقت من الغروب، وكان عليّ أن أعود إلى الفندق
لأنام.

نظرت مرة أخرى إلى جهاز هاتفي.. لم يتصل بي أحد.
سيصعب عليّ أن أعود إلى نفس الفندق، لكن أين سأنام؟
مشيت إلى أن وصلت إلى البحر..

وصلت بعد غروب الشمس، وتمنيت لو أدركت غروبها.
ما أجمل البحر، وما أروع نسيمه.

كان هدير البحر يدعو للاسترخاء ، فللبحر سحر يجذب كل من
يأتي إليه، ليسلبه أسرارته، وأحزانه، لذلك لم أتردد بالجلوس
على الشاطئ.

لم أشعر براحة كهذه منذ فترة طويلة جدًا.
أخذت بالتفكير..

هل من الممكن أن لا يتصل بي أحد من إخوتي؟

هل سيطول الأمر؟

ماذا أفعل؟

هل سفري إلى العاصمة كان قرارًا صائبًا؟

وما دخل سفري بالأمر؟ هم لا يعلمون أين أنا.

كيف سأعيش؟

لا بد لي من البحث عن مصدر دخل إلى أن يتصل بي أحد من إخوتي.

واصلت تفكيري، ولم أشعر بنفسي إلا وقد أغمضت عيني على صوت أمواجه، إلى أيقظتني أشعة الشمس، فقامت مضطربة.

لعلي قضيت ليلتي هنا!

نعم..

لقد استغرقت في النوم أمام هذا البحر.

لم أشعر بنفسي.

ولم أسمع حتى أذان الفجر من ذلك المسجد الذي تبدو مئذنته من مسافة ليست ببعيدة.

قمت مرتبكة، وعلى عجل، ومسحت ما اتسخ من عباءتي،
وتوضأت من قارورة ماء كانت معي، وصلبت، ثم مضيت في
طريقي سائرة.

بدأت أبتعد عن البحر باتجاه وسط المدينة.

أصابني البرد، وبدأت بوادر الحمى تظهر عليّ، لكنني كنت
مصرة على أن أبحث عن عمل.

وقفت أمام شارع تجاري بعد أن مشيت قرابة النصف ساعة.

ناطحات السحاب على جانبيه.

بالتأكيد سأجد عملاً لي هنا؛ إلى أن يتصل بي إخوتي.

قلتها بلغة الواثقة، فأنا جامعية، وتخصصي مطلوب، ولدي
الكثير من الدورات في مجالات عدة، والمباني مليئة بمكاتب
الخدمات الإعلامية، والعيادات، ومكاتب الاستشارات،
والشركات، ومراكز التدريب، وتضم كذلك مكاتب إدارية
للتوظيف في المدارس، وكل اللوحات التي أراها حولي تشير
إلى نهضة اقتصادية كبيرة.

مباني زجاجية كالمرآة، أرى مستقبلي من خلالها.

مشيت بثقة، بعد أن تأكدت من وجود السيرة الذاتية لي على جهاز هاتفي لأقوم بنسخها على ورقة من مكتب خدمات في طريقي.

دخلت أحد هذه المباني، وأظن بأنني لن أحتاج إلى دخول غير هذا المبنى، فالمكاتب، والشركات كثيرة بداخله.

بدأت من أسفله، وبحثت في كل دور من أدواره.

كنت أقول لعلي أجد وظيفة في المكتب الذي يليه.

انتصف النهار، وهذا رابع مبنى أدخله.

بدأ اليأس يتملكني، وجوعي يزداد، لكنني قررت المواصلة.

لم أكن أعتقد بأن البحث عن وظيفة أشبه بالأمر المعقد هنا.

كيف يكون ذلك، وكل شيء يشير إلى نهضة كبيرة؟

ربما بسبب عباءتي التي بدت وكأنها قديمة بسبب نومي على الشاطئ.

تجولت بين الشوارع، وحل المساء، وكان يجب عليّ أن أبحث من جديد عن مكان لأنام فيه، وقبل ذلك؛ لا بد لي من أن أكل أي شيء، فأنا لم أتذوق أي طعام منذ الصباح.

لم يعد المال يكفيني، لذا قررت أن أنام جائعة.

ما فائدة أن ينام المرء شبعاناً؟

كيف سيستمتع المرء بشبعه؛ وهو نائم؟

إنها فلسفة الفقراء.

هل أصبحت فقيرة لأفكر بالطريقة التي يفكر بها أولئك الفقراء؟

بحثت عن مكان لأنام فيه.

فندق بسيط هو الحل، لكن دون جدوى، فكل الفنادق هنا

أسعارها ليست في متناول يدي.

هل الحياة هنا غالية؟ أم أنني أصبحت معدومة؟

فكرت بالذهاب إلى الأحياء البسيطة.

كان عليّ أن أمشي ساعة حتى أصل إليها، فلعل الفنادق هنالك

تكون رخيصة.

الساعة كانت تشير إلى التاسعة مساءً.

ساعتي هي أغلى ما أملك، لقد كانت هدية أبي عندما تخرجت

من الثانوية، كان ذلك قبل وفاته بشهر، لذلك فهي غالية الثمن،

والمكانة عندي.

ملابسي هي أيضًا غالية، لكنها بدأت بالاتساخ، ولولا عباةتي التي تغطيها لأصبحت بالية.

فتحت هاتفي، لعل أحد من أخوتي اتصل بي هذه المرة؛ ولم انتبه.

للأسف.. لا أحد، سوى بعض الرسائل من بعض صديقاتي.

أعدت هاتفي إلى حقيبتني، وواصلت سيرتي.

كلما مشيت قليلاً ابتعدت عن البحر أكثر.

هل البحر كذلك لا يريد للبطء بأن يعيشوا قريباً منه؟ إنهم بحاجة أكثر من غيرهم، فهم مهم كثيرة، لذلك هم بحاجة إلى أن يكونوا بقربه، ليشكوا له عن ما يعانونه في هذه الحياة.

لا أحد يأبه بالضعفاء، ولا يهتم لحالهم.

ربما لأن ليس هنالك مقابل من المكوث بقربهم.

لقد أصبحت الحياة تعتمد على المصالح أكثر من أي شيء آخر.

لا مكان فيها للبطء، لكن لعلّي أن أقضي ليلتي بقربهم، فرغم أنهم لا يملكون كل شيء، لكن من الممكن أن يكون قربهم أكثر أماناً من غيرهم.

واصلت سيرتي باتجاه جنوب العاصمة.

وصلت وجهتي، وبدأت أتأمل هذه الأحياء، وأتأمل بساطتها، ثم أخذت بالبحث عن فندق.

لم تكن الفنادق كثيرة هنا، بالكاد وجدت فندقين على الشارع العام، فالزوار الذين يأتون إلى العاصمة يبحثون عن البحر، أو عن أماكن الخدمات، أو يحاولون بأن يكونوا بالقرب من المطار أو من محطة القطار.

لا أعلم لم تفتقد هذه الأحياء البسيطة للكثير من الخدمات، فلا يوجد بقربها إلا قسمًا للشرطة، وكأنهم يوحون إلى سكان هذه الأحياء بأنهم مجرمون.

لماذا يخبروننا دائمًا بأن الفقر يولد الجريمة؟ لم لا يقولون بأن الفساد هو من يولد الفقر والجريمة؟

يصنع الفساد مجتمعات فقيرة؛ بإهمالها، وتركها لتتصارع فيما بينها من أجل البقاء.

لم تكن كذلك أسعار الفنادق هنا مناسبة لي، لذا قررت البحث عن مكان يسترني لأنام فيه حتى الصباح، ثم بعد ذلك سأرى ماذا أفعل.

أخذت أنتقل بين هذه الأحياء، وأتأمل؛ وأنظر هنا وهناك.
بقايا منزل مهجور عند مدخل حي شعبي.. اقتربت منه.
يبدو مكانًا جيدًا للنوم.

كم كنت أتمنى أن لا يمر به أحد، حتى لا أتعرض إلى
مضايقات.

لكن هل سأنام فيه هذه الليلة؟!
بالتأكيد لا.

واصلت سيرتي.
فكرت..

ترددت..

لا.. لا.. لن أنام هنا.

لكن.. ليس هنالك حل آخر، وجسمي منهك.

عدت إلى المنزل المهجور، مستحيل أن أدخله، لكن من الممكن
أن أنام بجواره؛ من داخل سوره المكسور.

لحظة.. هل سأنام على الأرض؟!!

لماذا لا أعود وأبحث عن فندق، فربما أجد فندقًا تكون الأسعار فيه مناسبة.

لكنني بحاجة إلى كل ورقة، ولم يبقَ معي إلا القليل جدًا من المال.

هل أعود إلى البحر؟

لو ذهبت إلى البحر سأموت هناك من البرد، كما بدأت كذلك تظهر عليّ آثار الحمى التي أحاول مقاومتها، ونومي هناك سيزيد منها.

أخذت أتجول حول السور لأختار مكانًا مناسبًا للنوم.

مشيت بحدود السور مرتين، حيث أن هذا البيت يقع على شارعين، عند مدخل الحي.

سور بطلاء أبيض، يحيط بمنزل بطلاء برتقالي، ما بين السور والمنزل الذي بداخله بعض الأشجار المهملة، تبدو وكأنها كانت حديقة لأصحاب هذا المنزل، وعلى السور من الخارج كُتبت عبارات عن الشجاعة، والثورة، والحب، وللأسور بعض الأجزاء المهذمة من جهة مدخل الحي.

بجوار مدخل بابه الحديدي ذو اللون البني المكسور من الخارج؛ تقف شجرة لوز كأنها حارسة له، يأتيها صبية الحي بين وقت وآخر لقطف ما بها من لوز، من خلال رمي عصى صغيرة عليها.

وأخيراً..

هذا هو المكان المناسب لي كي أنام فيه، بقايا غرفة داخل السور، ملتصقة به؛ من الجهة التي عند مدخل الحي.

تعمدت أن أختار هذا المكان لقربه من بيوت أهل الحي، ومن الدكان، ولأنني أستطيع الهرب من الجزء المهدم من السور عند حدوث أي شيء.

بحثت عن شيء لأنام عليه.

لمحت كرتوناً، ولا بأس لي من أن أضعه على الأرض بعد أن فردته، ثم تغطيت بعباءتي.

الجو يميل قليلاً إلى البرودة، والناس يمرون من خلف هذا السور بين وقت وآخر، والإضاءة من خارج السور لا بأس بها، لكنها ليست قوية، سوى من الشارع الرئيسي.

كنت قلقة من أصوات بعض القطط التي قد تمر بالقرب مني، ولم يكن قلقي من صوتها، لكن حتى لا تلفت انتباه المارة إلى وجودي.

لم أستطع أن أغمض عيني، لكنني على الأقل استطعت أن أريح جسدي المنهك من السير طوال النهار.

أخذني التفكير إلى ما سأفعله غدًا، ولم أشعر بنفسي إلا ومنادي يناديني.

أصابني الخوف أول ما رأيته.

كان رجلاً كبيراً في السن، تبدو عليه ملامح الوقار.

طمأنني بأن لا أخاف، وسألني:

كيف لشابةٍ مثلكِ تبدو من ملابسها بأنها من عائلةٍ مقتدرة،
بأن تأتي إلى هذا المكان وحدها؛ لتنام؟

سألني كذلك إن كنت جائعة، وأخبرني بأنه سيعود إليّ بعد دقائق.

نظرت إلى ساعتِي، كانت السادسة والنصف صباحًا، لقد نمت دون أن أشعر بسبب الإرهاق الذي أصابني.

قمت مسرعة لأدرك صلاة الفجر، وتوضأت من زجاجة الماء التي كانت معي، وما إن انتهيت من صلاتي؛ حتى عاد إليّ ذلك الرجل؛ ومعه صحن من الفول، وقرص من الخبر، وزجاجة عصير.

ألقى الطعام أمامي، ثم غادرني.

التهمت الطعام في دقائق، كان لذيذاً، وأشبعني، ثم بحثت يمنة ويسرة لأشكره، لكنني لم أجده.

قررت الخروج لمواصلة البحث عن عمل، وكنت سعيدة بأنني لن أضطر لشراء طعام الإفطار، والاحتفاظ بما تبقى معي من ورقات.

ما أجمل خروج الناس إلى أعمالهم، وتحصيل رزقهم.

إنه شعور يدعو للتفاؤل، وللحماس.

كنت سعيدة هذا اليوم أكثر من البارحة، ولا أدري هل ذلك بسبب أنني تناولت طعامي قبل خروجي، أم لأن الناس هنا في هذه المنطقة الشعبية أكثر بساطة من غيرهم.

توجهت إلى ذلك المكان الذي بحثت فيه بالأمس، لأواصل بحثي بين الشركات، لكن دون جدوى.

اقترب الوقت من الثانية عشرة ظهرًا.

دخلت إلى عيادة طبية كبيرة، تحتل دورين كاملين من هذا المبنى، وبها عدة أقسام، تعمل بنظام الدوام الكامل.

استقبلني مسؤول التوظيف بها، ورحب بي.

أخذ مني الأوراق، وحاول لمس أطراف أصابعي، لكنني سحبتها بسرعة، وتظاهرت بعدم الانتباه لذلك.

ذكر لي مكانته الإدارية هنا، وأنه سيرقيني في العمل عندما يجد مني الجد والاجتهاد، والمرونة في العمل، حيث سأعمل بداية الأمر كموظفة استقبال، ثم بعد ذلك سيتم نقلي إلى قسم الشؤون الإدارية كمساعدة له، في حال أنني أثبت وجودي، وأبدت تعاوني ومرونتي.

لا أدري لماذا يركز على المرونة في غالب حديثه!

كان ينظر إليّ؛ لا إلى أوراقتي.

لا أدري لماذا تذكرت صديقتي سعاد وهو ينظر إليّ.

تذكرت كيف كانت تبكي وهي تحدثني عن استغلال مديرها لها في العمل، وكيف استطاع المكر بها، بعد أن استسلمت له، ثم

أصبح يبيتها بعد ذلك، بعد أن كان يعدها بالمكانة بين كل زملائها في العمل.

استأذنت للخروج، وغادرت المكان بسرعة، رغم أن قبولي للعمل معهم أصبح مؤكدًا.

أخذت بالبحث في شركات أخرى إلى أن حل المساء، وبدأت أشعر بالتعب.

مررت على صيدلية، وأخذت مسكنًا حتى أستطيع القضاء على مقدمات الحمى التي بدأت معي في ازدياد، ثم أخذتني قدامي إلى المكان الذي نمت فيه البارحة؛ وكأني أعود إلى منزلي.

وجدت كرتوني كما هو؛ وكأنه فراشي الذي ينتظرنني كل مساء، ارتميت عليه وتغطيت بعباءتي، ونمت بسرعة.

استيقظت قبيل الفجر بدقائق، لأتفاجأ بما شاهدته أمامي!

وجدت فتاة تنام بالقرب مني!

أخذني الخوف، وسألت نفسي عن سبب نومها هنا، وما إن أذن المؤذن حتى استيقظت مباشرة.

نظرت إليّ؛ وكأنها كانت تعرف مسبقًا بأنني هنا، ربما لأنها شاهدتني نائمة عندما جاءت لتنام.

تقدمت نحوِي، وطلبت مني أن أتبعها.

سرت خلفها حتى دون أن أسألها، فقد شعرت بالاطمئنان نحوها.

أدخلتني إلى مصلى النساء في المسجد القريب من مكان نومنا، وقالت لي بأنني إذا احتجت إلى دورة المياه فما عليّ إلا أن انتظر إلى أن يفتح المسجد؛ وأحضر إلى هنا، لأن السوق القريب منا لا يرحب أبدًا بدخولنا.

شكرتها، ودخلت إلى دورات مياه المسجد.

استحمت، وصليت، ثم عدت إلى حيث نمت ليأتي، ووجدتها تنتظرنِي.

ابتسمت لها..

سألتها عن اسمها، وعن سبب نومها هنا.

أخبرتني بأن اسمها سلمى، وأنها تنام في هذا المكان منذ سنتين، جاءت إليه بعد أن ضاقت بها السبل.

عرفت من كلامها بأنها تركت منزلها بعد وفاة والدتها، فقد طردها صاحب المنزل؛ لأنها لم تستطيع دفع إيجاره، ولا يوجد لديها أي أحد لتذهب إليه، فوالدها مات منذ سنوات، وعمها

هاجر إلى أوروبا، وليس لديها خال أو أي قريب آخر، وقد كانت وحيدة والديها بعد وفاة شقيقها.

أخبرتني بأنها قد بحثت كثيرًا عن عمل، وكيف عملت في سوبر ماركت بعيدًا عن هنا، وكيف أنها تعرضت فيه لمضايقات؛ إلى أن تركته، ثم جاءت لتتنام في هذا المكان.

في هذا اليوم لم أغير مكان نومي، فقد مكثت مع سلمى، تحدثني عن نفسها، وكيف كانت تعيش.

شعرت من حديثها كيف أنها كانت تبحث عن فتاة لتحكي لها عن همومها.

صحيح أنها مشردة لكنها فتاة، وبحاجة إلى صديقة تؤنسها في وحدتها التي وجدت نفسها فيها.

جميلة، سمراء البشرة، متوسطة الطول، نحيلة الجسم، بشوشة، تغطي رأسها بطرحة بيضاء، وملابسها الممزقة بعباءة سوداء بالية.

أصبحتُ وسلمى صديقتين في هذا المكان، وقد فرحتُ كثيرًا بهذه الصداقة؛ عند هذا البيت المهجور.

ذلك البيت الذي ننام على طرفه من الداخل، في غرفة نصفها محطم؛ خلف سورہ الأبيض، فليس من السهل أن نمكث بداخله، على الأقل لو جاء من يتحرش بنا نستطيع الهرب إلى الشارع.
نعم.. نحن مشردين، هكذا أصبح واقعا في هذا المكان.

هذا المكان الذي يعيش معنا فيه؛ في داخل البيت العم حسن، ذلك الرجل الذي قدم لي طعام الإفطار عندما حضرت إلى هنا.
رجل يبدو دون الخمسين من عمره، ذو لحية يخالطها الشيب، وشعر كثيف، يرتدي بنطال جينز قديم، وقميص أسود، من تصدق به عليه قصد ذلك حتى لا تظهر عليه علامات الاتساخ.
رجل لا يعرف أحد قصته، سوى أنه ينام في هذا البيت منذ أكثر من عشر سنوات، ينام بداخله دون خوف، لا يؤدي أحداً، يأتي إليه بعض أهل الحي ببفايا طعامهم، فيعطي منه سلمى، وبعض المشردين الذين يمرون من هنا.

أهل هذا الحي ودودين جداً.

هكذا شعرت، وهكذا أخبرتني سلمى.

دكان لبيع المواد الغذائية، بجوار البيت المهجور، به رجل طيب يدعى العم صالح.

العم صالح رجل طيب، يعطينا أحيانًا ما نريده؛ ولا يطالبنا بثمنه، هكذا أخبرتني سلمى، لكنني لم أطلب منه شيئًا، لأنني لا أحب أن أظهر حاجتي لأحد.

عند آخر هذا الشارع يوجد محل لبيع العطارة، يعمل فيه العم سلمان، وهو من قدماء أهل هذا الحي، ورث المحل عن أبيه الذي ورثه عن جده.

وبطول الشارع توجد بيوت أهل الحي، والذي تتفرع من خلاله أزقة لبيوت أخرى، بجوار كل بيت شجرة أو اثنتين.

هذه البيوت يملكها أصحابها على الأغلب، والبعض منهم قد استأجرها من آخرين قد غادروا الحي؛ واستقروا في أحياء أخرى راقية.

بيوت ملتصقة ببعضها، تبدو قديمة، لكن أهلها يقومون بدهانها بين سنة وأخرى، حتى لا تبدو كذلك، ورغم ذلك هي بيوت قوية على كل حال، بسبب أنها لم تدخلها مواد الغش في البناء كما هو حال هذه الأيام مع البيوت الحديثة.

ما يميز أهل هذه الأحياء البسيطة هو تكاتف أهلها.

هو سؤالهم عن بعضهم البعض، حتى نحن كانوا يسألون عنا،
ويتفقدوننا، ويتسامرون معنا أحياناً.

هكذا هم البسطاء؛ يشعرون بأنك واحد منهم، تنتمي إليهم،
وتدوب بينكم الفروقات.

هل سبب ذلك يعود لأنهم قد جربوا قسوة الحياة؟

الحياة تعلمنا الكثير من الدروس.

تعلمنا كيف يعيش البشر، وكيف يتألمون.

تصنع منا رحماء.

الإنسانية ليست مبادئ نقرأها من خلال الكتب، بل نتعايشها
فنتقنها.

نتقن الشيء عندما نشعر به.

هكذا سنفهم الحياة.

مضت الأيام وأنا في هذا المكان مع سلمى، نفاسي هذه الحياة،
وتصبر كل منا الأخرى.

كنا نعيش على ما يأتي لنا من طعام يعطيه لنا بعض أهل الحي،
أو يأتي لنا به العم حسن وهو عائد إلينا في أي وقت.

كانت حياة صعبة عليّ أنا وسلمى، لكن لم يكن لدينا أي حل
آخر.

في أحد الأيام؛ وبينما كنت أقلب هاتفني تذكرت إخوتي.

حزنت كثيرًا لأنهم لم يتواصلوا معي، أو يسألوا عن حالي حتى
هذه اللحظة.

لقد مضى شهر من يوم أن غادرت مدينتي.

توقعت بأن يتصل إخوتي عليّ في اليوم التالي لمغادرتي، لكنهم
لم يفعلوا ذلك إلى الآن.

لقد أخذتهم الحياة عني، ألا يعرفون بأني أختهم رغم أي شيء،
فلماذا يتناسونني مع هذه الحياة؟!!

أخرجت شريحتي من هاتفني ورميت بها بعد أن قمت بكسرهما،
وكأنني بذلك أقطع آخر خيط يربطني بهم، وحذفت حساباتي من

على وسائل التواصل على أمل أن أقوم بعمل حسابات جديدة
فيما بعد.

لم أشعر بالندم على هذا التصرف.

لم أشعر بالحزن على مسح ذكرياتي الجميلة من على تلك
الحسابات، فتجاهلهم لي فاق كل شيء عندي.

تألّمت كثيرًا.

تألّمت لردة فعلي هذه، ولم يكن ألمي ندمًا، بل حسرة عليهم.

لم أتوقع أبدًا أن تكون هذه مكانتي عندهم.

بكيت كثيرًا في تلك الليلة.

بكيت لكن هذا البكاء منحني قوة أستطيع من خلالها مواجهة كل
ما هو قادم.

قوة كنت بحاجة للاستمرار بالعيش.

قوة .. رغم كل شيء كسرتني.

أحيانًا قد تمنحنا الانكسارات قوة تعيننا على مصاعب الحياة.

على مواجهة كل ما هو قادم.

لحظات الضعف التي نعيشها قد تصنع بداخلنا قوة.

كل مر نتذوقه في هذه الحياة هو مشروب طاقة لنا.
هو وقود يعيننا، فالحياة بحاجة إلى كل تلك الطاقات لنستطيع أن
نواجه ظروفها بقوة.

مرت الأيام، وحالي لم يعد يسرني.

سألت نفسي:

هل سأبقى على هذا الحال؟

لقد اتسخت ملابسي، وبليت.

عزمت على البحث عن عمل من جديد.

ماذا أفعل؟ فالشركات لم تقبلني، إنها تبحث عن الخبرة، ولم تشفع لي شهاداتي من العمل في إحداها.

تذكرت السوبر ماركت الذي كانت تعمل فيه سلمى، والذي قد حذرتني منه.

لا أعلم لم هي لا تريد أن تخبرني عن تفاصيل صعوبات العمل في هذا السوبر ماركت، فقط تحذرنني من محاولة العمل فيه، ومن أنني قد أتعرض فيه إلى مضايقات.

لم تخبرني عن تفاصيل تلك المضايقات.

وهل من الممكن أن تتكرر معي لو عملت فيه؟

خرجت في صباح أحد الأيام، وودعت سلمى والعم حسن؛ على أمل ان أعود مساءً بعد بحثي عن عمل.

نفضت ملابسني جيداً قبل مغادرتي، ورغم كل محاولاتي؛ لا زال أثر الغبار ظاهرًا على أجزاء من عباةتي.

دخلت محلًا تلو الآخر، ولا فائدة.

مشيت مسافة أخرى لعلني أجد عملاً، ولا فائدة.

قررت العودة، فالشمس قد اقتربت من المغيب.

في طريق عودتي مررت بذلك السوبر ماركت الذي كانت تعمل فيه سلمى، وأخذني الفضول إلى دخوله، لكنني قررت عدم الدخول.

تجاوزته، ثم توقفت فجأة، وأدخلت يدي في حقيبتي.

لقد نفذت نقودي، ولم أعد أملك إلا ثلاث ورقات.

تأملت كيف أصبح حالي، وأن كل محاولاتي للبحث عن عمل قد باءت بالفشل.

قررت أخيرًا الدخول إلى السوبر ماركت، وسألت عن إمكانية حصولي على وظيفة لديهم.

رحب بي المدير..

كان رجلًا طيبًا بعكس ما توقعت.

أخذ أوراقِي، ثم سألني عن مقدرتي على العمل بين المستودع وصالة العرض.

أخبرته بقدرتي على العمل في أي قسم يختاره لي، فأنا أمتلك الكثير من المهارات، ولدي قدرة على التعلم، والتأقلم بسرعة، كما أنني أتقن الإنجليزية.

نادى على مشرف الصالة، وأخبره بأنني سأعمل في القسم لديه، وشدد عليه بأن لا يتقل عليّ بالعمل لأنني امرأة.

ذهبت مع المشرف، والذي شرح لي بسرعة عن آلية العمل هنا، وآلية ترتيب البضاعة، وجرد الأصناف، وكل ما يخص ذلك.

تحتل صالة العرض المساحة الكبرى من السوبر ماركت، ففيها كل المنتجات التي تعرض للعملاء بترتيب متناسق، بينما يقع المستودع في الجزء الخلفي من السوبر ماركت، حيث لا يدخل إليه العملاء، فهو خاص بالموظفين فقط.

أخبرني بأن أعود إلى منزلي، على أن أحضر في صباح الغد لتحديد القسم الذي سأعمل فيه، وللبدء بالتدريب، ومن ثم مباشرة العمل في نفس اليوم.

فرحت كثيرًا بعلمي في السوبر ماركت، فقد تعبت كثيرًا خلال الأيام الماضية في البحث عن عمل.

عدت إلى مسكني، وأخبرت سلمى والعم حسن بحصولي على عمل.

لم أكن أرغب بإخبار سلمى عن مكان عملي، فأنا أعلم بأنها ستطلب مني عدم العمل هناك.

شككتُ من خلال حديثها بأنها ربما قد حدثت لها مشكلة ما، ولا ترغب بأن أعرف شيئًا عن تفاصيلها، لذلك احترمت رغبتها.

قبل أن أنام غسلت عباأتي، ثم وضعتها لتجف حتى الصباح، ونمت بعدها سعيدة، فعدًا سأبدء تجربة جديدة في حياتي.

استيقظت قبل الفجر، وذهبت إلى حمامات النساء في المسجد
القريب منا، واستحمت، وأديت صلاتي.

تناولت فطوري مع سلمى، ثم ودعتها.

كان الطريق إلى عملي ممتعًا.

ربما لأول مرة أشعر بذلك، بسبب أنني اليوم لست قلقة من عدم
حصولي على عمل.

الكل يخرج من بيته متوجهًا إلى عمله، وأنا أحد أولئك بالطبع.

وصلت إلى السوبر ماركت، وسيارة شركة الألبان تنزل
بضائعها.

دخلت، وتوجهت مباشرة إلى حيث مكتب المشرف، والذي
رحب بي؛ واسمه الأستاذ سالم.

سألته عن العمل المطلوب مني.

نادى مباشرة على أحمد، وأخبرني بأنني سأكون مساعدة له،
فأحمد هو مسؤول قسم العناية الشخصية وأدوات التجميل هنا.

أخبرني بأنه اختار لي هذا القسم لأنني كفتاة قد أكون ملمة بأكثر
الأصناف المتوفرة فيه، وأن كراتينها ليست ثقيلة الحمل.

قبل توجهي مع أحمد ناداني الأستاذ سالم؛ وسألني عن المكان الذي سأضع فيه عباأتي.

أخبرته بأنني سأعمل وأنا مرتدية لها، فاعترض بسبب أن عباأتي ستكون عائقاً أمام تأديتي لعملتي، وهنا تدخل أحمد وقال للأستاذ سالم بأنه يمكنني أن أجلب بالطو بدل العباءة كما كانت تفعل سلمى، والتي كانت تعمل معه في نفس القسم.

وافق المشرف على ذلك، وذهبت مع أحمد وأنا سعيدة، فقد خشيت أن يتم رفضي لأنني سأكون مصرة على ارتداء حجابي، وسعدت كذلك لأن أحمد أنقذني؛ فاطمأنتت للعمل معه، فهو كما يبدو شاباً طيباً.

لحسن حظي أن هنالك بالطو في المستودع نسيته فتاة كانت قد تركت العمل، أعطاني إياه أحمد.

قلت في نفسي: ربما كان هذا البالطو لسلمى.

لقد وفر عليّ عناء الذهاب إلى محل العباآت؛ وشراء واحد جديد، فما معي من ورقات لا تكفي لأي شيء.

أخذت أفكر في سلمى، وعن عملها هنا، وعن ما واجهته من أحداث.

تخيلتها وهي تعمل في هذا القسم.

يا ترى ما نوع المضايقات التي تعرضت لها سلمى في هذا المكان الذي يبدو جميلاً؟

عرفت من أحمد مهمامي، فهي سهلة جداً، فكل ما عليّ فعله هو جرد البضاعة من على الرفوف، والذهاب إلى المستودع لإحضار الكميات الناقصة وتعبئتها، ثم مساعدة الزبائن في الإجابة على استفساراتهم للحصول على ما يريدون.

بدأت التعرف على بعض الأصناف، ولم يكن ذلك بالأمر الصعب، فأغلبها أصناف أعرفها من قبل، والأسعار مطبوعة على كل صنف، ولا يحتاج الأمر لحفظها.

لم أكن الفتاة الوحيدة في السوبر ماركت، فقد كان لي زميلات أخريات، فرحت بهن، لكنني لا أجتمع معهن كثيراً، ففترات دوامهن تختلف عن فترات دوامي، فالسوبر ماركت مفتوح طوال اليوم.

مرت الأيام وأنا مستمتعة بعلمي، إلا من بعض التصرفات التي بدأت ألاحظها، وهي محاولة بعض الموظفين من التقرب لنا كفتيات.

لم يُظهروا أي شيء بشكل مباشر، لكن التلطف المبالغ فيه، ومحاولة تقديم المساعدة لنا كفتيات بشكل كبير، واهتمامهم الزائد بمظهرهم أمانا، هو ما أثار تحفظي نوعًا ما، ورغم ذلك لم أهتم كثيرًا، فلعلي كنت مبالغة بشكل كبير، خاصة وأنني لا زلت متأثرة بقصة صديقتي سعاد.

نسرين، فتاة تعمل معنا، في قسم الأجبان.

كانت نسرين فتاة انطوائية بشكل كبير، حاولت التقرب منها، واكتشفت أنها تتذكر سلمى.

اكتشفت كذلك بأن مشرفها في قسم الأجبان يتضايق كثيرًا من جلوسي معها.

كانت هنالك غرفة خاصة بالموظفات، بها دورة مياه خاصة بنا، نمكث فيها في أوقات الراحة.

لمحتها في أحد الأيام تدخل هذه الغرفة، فتركت ما في يدي وتوجهت نحوها مباشرة، وانتظرتها حتى تخرج منها.

طلبت منها أن نجلس سووية، لكنها اعتذرت بسبب أن لديها عملاً، فاتفقت معها على أن نلتقي اليوم بعد نهاية دوامنا.

التقيت بها في نهاية الدوام عند خروجنا، فهي لاتسكن بعيداً عن العمل، وأثناء سيرنا بادرته بسؤالها: لم أنتِ مختلفة؟

كانت تسألني وكأنها تريد أن تخبرني عن شيء!

سألته مباشرة عن الأمر الذي تخفيه: سكتت، ثم دمعت عيناها. أخذتها إلى حديقة قريبة، فلم يكن لدي مال لأعزمها في مطعم أو حتى كافيه.

شكت لي عن ما تعانیه في عملها، من تحرشات، وكيف أن مشرفها يحاول الالتصاق بجسدها أثناء عملها، فهم داخل طاوله زجاجية دائرية، تحيط بها الأجناب من كل ناحية، وأنها لا تستطيع أن تشتكي لأحد بسبب حاجتها إلى العمل، وكيف أنها تحاول أن لا تلقي لكلماته الغزلية أي اهتمام.

كان مشرفها يناديها (قشطة)، وكانت تخفي تضايقها من هذه الكلمة.

تذكرت أحمد، وكيف أنه يتقرب مني أثناء العمل، وأنه حاول أكثر من مرة بأن يلاطفني بالكلام.

حاولت أن أواسيها، وطلبت منها أن لا تستسلم لأي كلمات، وأن تشتكي إلى مدير السوبر ماركت عندما تجد ما يضايقها، لكنها

أخبرتني بأن كل ذلك لن يكون له قيمة، فالمشرف شخص أكثر أهمية عند مدير السوبر ماركت مني، ولن يعاقبه أو يناقشه لأجلي، وسيرى ما يحدث أمرًا روتينيًا في بيئات العمل، وأنا في نهاية الأمر زملاء، وقد تحدث أشياء بدون قصد، ولا داعي من الحساسية الزائدة.

قالت لي هذه الكلمات، ودموعها لا تتوقف.

عدت إلى مسكني وأنا أفكر في نسرين، وعن ما تعانيه، وبدأت أربط ذلك بسلمى.

لم هذه المضايقات في بيئات العمل علينا كفتيات؟

ليس هنا فقط، بل حتى في الأماكن التي يفترض بأن منسوبيها من صفوة المجتمع.

يتكرر ذلك من البعض منهم.

في المستشفيات، في الجامعات، في الشركات، في المؤسسات، في المدارس، وفي أماكن كثيرة.

في الكافيهات..

مهلاً..

لم تعمل الفتاة في كافيه أو لاونج؟

لم تقبل بهذه الوظيفة وهي تتجول بين الزبائن المستمتعين
بصخب الموسيقى؟

هل هذه التجاوزات هي ضريبة لابد أن تدفعها الفتاة من أجل أن
تعمل؟

هل هو استغلال لضعفها وحاجتها؟

لم لا تواجه الفتيات مثل هذه التصرفات؟

هل هو خوف من ردة فعل المجتمع؟ أم لأنها شعرت بضعفها؟
من تسبب لها بكل ذلك؟

الفقر والحاجة؟

أم تقصير الحكومة في رعايتها، وتوفير ما تحتاجه إن كان ليس
لها عائل؟

صحيح؛ أين الحكومة عن حالنا؟

لم لا تكون هنالك مبالغ مالية شهرية مجزية، وكافية، تغنينا عن
العمل؟ خاصة للمطلقات، والأرامل، وغيرهن ممن هن بحاجة
إلى دخل مادي؟

ألسنا من يعد جيل الغد؟ أبناء هذا الوطن؟ أليس من الأولى أن
يفرغونا لذلك؟

لم لا يبألون أو يشعرون بنا؟

أم أن هنالك ما يشغلهم عنا؟

ألسنا جزءًا من مهامهم؟ أم أن هنالك تعمدًا لأن يصبح حالنا
هكذا؟

هل خرجنا لبيئة العمل من أجل أن نستفيد من دخل مادي يلبي
حاجياتنا؟ أم أرادونا أن نعمل لتكتمل الصورة؟

إن استقرار الأوطان لا يكون إلا باستقرار الأسر، وأن استقرار
الأسر لن يتحقق إلا بوجود امرأة تتفانى داخل المنزل لزرع
الطمأنينة فيه، ولن تستطيع أن تزرع فيه تلك الطمأنينة إذا
أشغلها أمر ما خارج هذا المنزل.

مرت الأيام، وأنا بين ذهاب وعودة؛ من وإلى عملي.

في صباح أحد الأيام أخبرني مشرفي بأن أعود إلى البيت، فقد
تغير وقت دوامي إلى الفترة الليلية.

لم أعترض، فأنا على كل الأحوال لا يهمني متى يكون وقت
دوامي، لأنني ليس لي عائلة، لذلك عدت مباشرة إلى مسكني.

عند الحادية عشر مساءً توجهت إلى عملي، وكان هذا حالي في
كل ليلة.

الدوام الليلي كان هادئًا نوعًا ما، فلا شركات المنتجات تأتي
بالبضائع، والحركة خفيفة داخل السوبر ماركت، والكل منشغل
أغلب وقته بجهاز هاتفه، أو يتحدث مع زميل له.

كنت في بداية دوامي أرتب البضاعة سريعًا قبل أن أستريح في
ركن من أركان المستودع.

لم أكن لوحدي من ينتقل إلى الفترة الليلية؛ فقد كان حاتم كذلك
معي.

أخذ حاتم يسألني عن أحوالي، وأنا أجيبه، وأظهر انشغالي
بالعمل.

كان يكرر أسئلته، وسألني إن كنت قد تناولت طعام العشاء،
فأخبرته بأنني أكلت قبل حضوري إلى العمل.

تذمرت من كثرة حديثه معي، ومن سؤاله لي عن حاجتي لتناول الطعام، حتى أنه لاحظ ذلك، هو ليس بسيء، لكنني أفضل أن لا أتحدث مع أحد، خاصة وأن المكان لا يوجد به الكثير من الزملاء.

عند الثامنة صباحًا كنت أخرج من عملي، وهنا يحضر من سيداوم في فترة النهار، فكان من الطبيعي أن ألتقي بزميلتي نسرين، والتي طلبت مني أن ألتقي بها يوم الغد في الحديقة. فرحنت كثيرًا بطلب نسرين للقائي، خاصة وأنا لم تعد تجمعنا فترة دوام واحدة.

التقيت بها في اليوم التالي، وسألتها عن أحوالها، وكانت معها ابنة أختها الصغيرة حنان؛ لتلعب في الحديقة.

طمأننتني على حالها، وبأنها تبحث لنفسها عن عمل في مكان آخر، ثم سألتني إن كانت الفترة الليلية مناسبة لي، وطلبت مني أن أحاول تغيير وقت دوامي، وهنا صرحت لي بقصة سلمى.

أخبرتني بأن سلمى صديقة لها، كانت تعمل هنا في نفس وظيفتي، شابة سمراء جميلة، وأنيقة، كان الجميع يراقبها ويتمنى التقرب منها، خاصة بعد أن علموا بأنها وحيدة، فاستغل

مديرها، سلطته عليها؛ ونقلها إلى دوام الليل، وفي إحدى الليالي طلب منها الذهاب إلى المستودع لجلب بعض الأصناف، ثم دخل خلفها المستودع، وأخذ يساومها على نفسها، وأنه سيزيد من مرتبها، وستصبح في وظيفة أفضل، فحاولت مقاوته، ثم اتجهت إلى حيث الكاميرا وهددته وهربت، ولم تعد منذ تلك الليلة.

حتى راتبها لم تأتي لاستلامه.

أكبرت سلمى على ما فعلته، لكنني لم أقرر ترك العمل بعد، فقد أخذني الفضول إلى محاولة كشفهم، ومعرفة ما سيحدث لي.

مرت الأيام، وفي إحدى الليالي، وأثناء ترتيبتي للمستودع سمعت حاتم يشكر مشرفنا على أنه نقله ونقلني إلى فترة الليل.

عرفت بأن نقلي هو بسبب طلب حاتم بأن أكون معه في فترة الليل ليستفرد بي، وأن المشرف ساعده على ذلك، وكأنني جارية قام بتأجيرها إلى حاتم.

من حسن حظي أن هذه الليلة كانت نهاية الشهر، فأخذت راتبي في الصباح بعد حضور المحاسب، ولم أعد بعدها.

مهما بلغت قوة المرأة فإنه سيصعب عليها مقاومة الرجل؛ ومواجهته عند محاولته أن يؤذيها، أو أن يتحرش بها.

لن تستطيع أن تدافع عن نفسها إن كانت وحيدة، ورغم ذلك عليها أن تواجهه، وأن لا تستسلم.

عليها أن لا تقبل بأي إغراء من زيادة مرتب، أو ترقية.

أو حتى لا تستسلم لأي تنمر قد يواجهها من كونها متشددة، وغير عصرية.

عدت إلى مكان نومي، وكانت حوالي التاسعة صباحًا.

رأيت سلمى جالسة، سارحة بفكرها، فجلست معها قليلاً إلى العاشرة، ثم أخبرتها بأني قد استلمت راتبي، وطلبت منها أن تخرج معي إلى السوق، واشتريت لي ولها بعض الملابس، والمستلزمات.

كذلك قمنا بشراء مرتبتين صغيرتين لننام عليهما، ومزهريّة صغيرة، وسجادة وضعناها بين المرتبتين.

أصبح لدينا في هذا المكان المهجور شبه غرفة، وبعد أن رأى العم حسن ما قمنا بشرائه؛ أحضر لنا بعض الأخشاب من أجل

أن يغلق لنا الأماكن المكشوفة، وجلب لنا بابًا، كان قد وجده مكسورًا فأصلحه لنا، وفتح لنا نافذة يدخل منها الهواء.

صحيح أنها غرفة بسيطة جدًا لكنها أدخلت فينا السعادة والبهجة.

وكانت سعادتنا أكبر، بعد أن ذهبنا إلى المسجد المجاور لمكان سكننا، وبدلنا ملابسنا الجديدة، بعد أن استحمننا في حمامات النساء، ثم ذهبنا واشترينا طعامًا لذيذًا من مطعم قريب لنا، وجلبنا كذلك وجبة للعم حسن.

أخبرت سلمى بأنني فخورة بها، لأنها لم تتنازل عن شرفها أثناء عملها في السوبر ماركت، والذي عملت أنا فيه.

تفاجأت سلمى بأنني كنت أعمل في ذلك المكان، وأخبرتني بأنها قد تعرضت كذلك لمضايقات من نفس النوع عندما عملت في محل ملابس نسائية، كانت تعتقد من أن صاحب المحل لن يؤذيها.

بدأت أفكر أنا وسلمى في أيامنا القادمة، وكيف سنبحث عن عمل، واقترحت عليّ بأن نبيع المناديل عند إشارات المرور في شوارع العاصمة.

تقبلت الفكرة، خاصة وأن هذا العمل لن يرتبط فيه بأحد، ولن نحتاج فيه إلى رأس مال، فقط نشترى بما نملك.

بعد عدة أيام بدأنا تنفيذ الفكرة.

توجهت أنا وسلمى لأحد المحلات الخاصة ببيع الجملة، وبدأنا بشراء مجموعة من المناديل، والتي خبأناها في غرفتنا الصغيرة، ثم أخذت مجموعة منها، وكذلك فعلت سلمى وافترقنا بين الشوارع.

وضعت المناديل في كيس كبير حملته معي، واتجهت شمال غرب باتجاه الكورنيش.

فضلت الوقوف عند الإشارات في الشوارع الراقية، حيث سمعت بأنه في هذه الأماكن قد يكرمنا أهلها ممن يشترون منا المناديل بإكراميات جيدة.

لم أكن وحدي، كان هنالك صبيًا يبيع الماء، وآخر يحمل سلة بها علب فراولة.

يفترض بأن يكون هذين الصبيين في المدرسة، لكن الحاجة أجبرتهما على العمل، وعلى الإنفاق على أسرتهما.

لقد غادر هذين الصبيين الطفولة مبكرًا، وجربا قسوة الحياة من أجل توفير لقمة لأسرتهما.

مؤلم أن نرى حاضرنا يقضي على مستقبلنا من خلالهما.

لم تسأل المدرسة عن غيابهما، ولن ترسل خطابًا لأي جهة بالنظر في ذلك، لأنها تعلم بأن أمرهما لا يهم أحد.

كنا ننتظر أن تغلق الإشارة وتصبح حمراء، حتى ننتشر بين السيارات، فكان كل واحد منا يمر بين السيارات؛ ويمسك بيده ما معه من بضاعة.

كان العمل متعبًا بسبب أشعة الشمس وحرارة الجو، ويزداد تعبنا كلما اقتربنا من وقت الظهر، خاصة وأن عباتي السوداء تمتص أشعة الشمس.

مر أسبوع؛ وأسبوع آخر ونحن نخرج صباح كل يوم، ولم يكن المكسب بالشيء الكثير، لكنه كان مناسبًا لنا، يكفيننا ثمن طعامنا، ويتبقى جزء منه قررت ادخاره.

نعم، ادخاره، فلن أستمر على هذا الوضع بالتأكيد.

كنا نتمنى لو أننا نخرج في المساء إلى العمل؛ حتى نتجنب حرارة الشمس، لكننا لو فعلنا ذلك فلن نستطيع أن ننام في الصباح والظهر، ففي هذه الأوقات يكثر الضجيج في الحي، فحينما الشعبي به الكثير من المحلات، وتأتي إليه كذلك بعض النسوة من أجل بيع ما يصنعه في بيوتهن من طعام.

لم نكتفي ببيع المناديل، بل جلبنا بعد ذلك بعضًا من الورود
والفل، فقد رأينا رواجًا كبيرًا لها.

لم يكن ينغص علينا في عملنا إلا موظفي البلدية، أو مكتب
مكافحة التسول، رغم أننا لسنا متسولين، لكنهم كانوا يعاملوننا
على أننا كذلك، وكنا نعاني منهم بشكل كبير.

لا نعرف لم يحاربوننا في لقمة عيشنا؟

لم لا يوفرون لنا على الأقل أماكن مخصصة نبيع منها؟

لم الاشتراطات التي لا يستطيع عليها إلا الأغنياء؟ أليست هذه
مهن الفقراء؟

إذًا أين نذهب؟ ألا يكفي ما نعانيه من حرارة الشمس؟

لقد تعبت كثيرًا من حياتي هذه التي لم أتعود عليها، لكن لا بد
لي من الصبر.

في صباح أحد الأيام، وبينما كنت أمارس عملي عند الإشارة،
لم أجد نفسي إلا وقد قبضوا عليّ!

تعجبت من كونهم قبضوا عليّ وحدي دون بائع الماء، وبائع
الفراولة.

أدخلوني باصًا كبيرًا، وجدت فيه سلمى، وأخريات.
ظننت أنها النهاية.

تحرك الباص بعد أن جمع أكبر عدد منا، إلى أن أدخلونا إلى
مبنى يشبه المدرسة، به ساحة كبيرة اجتمعنا فيها.

كنا فتيات كثيرات، وعرفت من بعضهن أنه تم إحضارهن من
دار أيتام، عندها عرفت أن للأمر منحًا آخر.

بينما كنت أتحدث مع سلمى؛ دخل علينا ثلاثة رجال وامرأة،
وأخبرونا بأن وجودنا هنا هو من أجل العمل.

فرحنا جميعًا بذلك.

أخيرًا يمكننا العمل! وبدون أن نجد من ينغص علينا.

لقد بحثت كثيرًا عن أعمال في كل مكان، وها هو الآن يأتي
إلينا دون عناء.

أمرونا بالجلوس، والانتظار قليلاً، وسيتم بعدها إفهامنا كل شيء بالتفصيل.

قدموا لنا وجبة غداء، ومنحوا كل واحدة منا مائة وخمسين ورقة لنشتري بها ملابس جديدة، على أن نحضر في اليوم التالي، مرتدين لها؛ عندما تأتي الباصات لنقلنا، فالعمل سيكون سهلاً جداً، ليس فيه أي صعوبات.

عدنا سعيدات، وقبل أن نعود إلى المنزل توجهت أنا وسلمى إلى المكان الذي كنا نعمل فيه عند الإشارات لأخذ بضائعنا، فصحیح أننا تركناها عندما قبضوا علينا، لكن بالتأكيد سيقوم بائع الماء، أو بائع الفراولة، وكذلك من يعملون مع سلمى بحفظها لنا في مكان آمن، فهذا عُرف بيننا، ومن أدبيات عملنا.

إن لكل عمل أدبيات، وهؤلاء البسطاء رغم صغر سنهم، يفهمون، ويقدرّون هذه الأدبيات، فنحن نشعر ببعضنا بالتأكد.

في اليوم التالي حضرنا جميعاً بعد أن لبستُ أنا وسلمى من ملابسنا الجديدة التي اشتريناها أنا وهي؛ بعد أن خرجتُ من السوبر ماركت، لذلك فضلنا الاحتفاظ بالمبلغ الذي منحونا إياه البارحة؛ ولا نصرف منه أي شيء.

انتقلوا بنا إلى مهرجان غنائي، ووزعونا في الساحات، وظننا أننا سنعمل في لجان التنظيم، لكنهم أخبرونا أن نستمتع بالفعاليات، وهذا هو كل شيء.

تعجبت من هذه المهمة، لكن على كل حال فمطربتي المفضلة ستحي حفل الليلة.
انتظرتها..

كانت الفرقة الموسيقية تنتظر دخولها الأسطوري.
تفاجأت بعدد الحضور في ازدياد، خاصة من قبل الشباب، لقد دفعوا مبالغ كبيرة من أجل الدخول إلى الحفل.
أضعت سلمى وسط الزحام، وأصبح عدة شباب من حولي، وبعض الفتيات.

كنا جميعًا وقوفًا.
بدأت الحفلة، وبدأ الرقص معها.
تضايقت، وبدأت أفكر بالخروج.
طلب مني أحد الشباب الرقص معه، فلم أردد عليه.
جذبني شاب آخر، فدفعته بيدي.

حاول الشباب الالتصاق بالفتيات.

هنالك من تقبلت الأمر، وازدادت المضايقات.

لم أتحمل تلك المضايقات، فغادرت المكان بسرعة؛ وانتظرت بعيداً.

لمحت سلمى تتجه نحوي، وسلوى كذلك، والتي تعرفت عليها هناك، فقد جاءت من دار أيتام.

كانت غاضبة جداً، لأن صديقتها نادية تعرفت على شاب هناك، وأخذت بالرقص معه.

انتهت الليلة، وقبضت كل واحدة منا مائة ورقة، بعد أن طلبوا منا الحضور كذلك في يوم الغد إلى نفس المكان؛ وسيأتي الباص لنقلنا.

نزلت أنا وسلمى بداية الشارع، بالقرب من مكان نومنا، ولم نتحدث مع بعضنا، وذهبنا مباشرة إلى النوم، فقد كنا مصدومتين مما حدث.

هل من المعقول أن يستهان بعرضنا بكل هذه السهولة؟

هل كان عملنا هو إمتاع من حولنا من شباب؟ وجذبهم؟ أم زيادة عدد حضور الحفلة؟

ماذا عن الفتيات اللاتي قبلن بالرقص؟

وماذا عن تلك التي خرجت من الحفلة بعد أن واعدت شابًا على اللقاء مرة أخرى؟

أخذت أفكر قبل خلودي للنوم بسلوى.

تلك اليتيمة التي نشأت في دار الأيتام.

تلك الدار التي كان يفترض أن تصنع منها فتاة ناجحة، حتى تستطيع مواجهة الحياة وحدها، لا أن تفرط فيها لتصبح كالجارية.

في غياب أهلها من سيوجهها إلى الطريق الصحيح؟

من سيحميها؟

ماذا عن نادية؟

ماذا عن الأخريات؟

استيقظت اليوم التالي؛ لتخبرني سلمى بأن فاطمة قد دعتنا لتناول الإفطار عندها، فقد كن نساء الحي بين فترة وأخرى يدعوني وسلمى لتناول الطعام، من باب الإحسان لنا، وللحديث والسرر معهن، فأهل الحي هنا بسطاء.

صنعت فاطمة لنا الإفطار بعد أن خرج زوجها إلى العمل،
وذهب ابنها رامي وابنتها وجدان إلى المدرسة.
كان فطورًا شهياً.

شعرنا بالدفء العائلي في بيت فاطمة.

نعم، فأنا وسلمى نشعر بالراحة عندما ندخل بيتاً من بيوت
الحي، أو حتى عندما نسير في شوارعه؛ بعكس ما نشعر به في
الأحياء الأخرى التي نذهب للبيع فيها، ربما لأن البسطاء
يشعرون ببعضهم، فنجد التقدير هنا دون غيره من أماكن.

مضت الأيام، ونحن نواصل عملنا عند الإشارات.

في صباح أحد الأيام، وقفت كعادتي على رصيف الشارع
انتظر إغلاق الإشارة لأبدأ عملي بالتجول بين السيارات، وبيع
ما في يدي من مناديل، وورود.

كان الوقت يقترب من العاشرة صباحًا، وكنت متعبة من حرارة
الشمس، والتي اقتربت من كبد السماء.

وقفت سيارة بيضاء تبدو من مظهرها بأنها لأحد الأثرياء.

فتح شاب نافذة السيارة، وكان صديقه بجواره.

سألته إن كان يحتاج إلى مناديل أو إلى بعض الورد، فرد عليّ
بسؤال آخر:

هل لديك خبرة في تنظيف المنازل؟

ثم أكمل حديثه:

والدتي امرأة كبيرة، وأختي موظفة في إحدى الشركات،
وأخبرتني والدتي بأن أحضر لها فتاة لتساعدنا في تنظيف
المنزل، وستعطينك مبلغًا مجزيًا، إن قمتِ بذلك، وسأعود بك
إلى نفس المكان، وقد تعملين عند أمي بأجر يومي، كل يوم.

فرحت كثيرًا، ووافقت على الفور دون تردد، فكم كانت فرحتي بالعمل في منزل لدى عائلة كبيرة، بدلاً من أن أفضي وقتي تحت أشعة الشمس لأجل ورقات معدودة.

ركبت معهما، وذهبا بي إلى عمارة سكنية، وأخبرني الشاب بأن والدته في الشقة، وهي بانتظاري.

تعجبت! فكيف لشاب كهذا، ويملك مثل هذه السيارة الفارهة أن يسكن في شقة بدل قصر كبير! لكنني لم أهتم كثيرًا لذلك.

صعدت معه، وظل صديقه في السيارة، على أن يعود له بعد أن يوصلني إلى الشقة مباشرة.

فتح باب الشقة، والتي بدت كشقة عادية.

سألته عن والدته، فأخبرني بأن أنتظرها في غرفة الضيوف، وأنه سيذهب ليخبرها عن حضوري.

دخلت إلى الغرفة وجلست أنتظرها.

مرت خمس دقائق، ثم حضر إليّ دون والدته.

سألته عنها، فأخبرني بأنه لا يوجد في الشقة سواي أنا وهو، ثم جلس ملاصقًا لي.

ابتعدت عنه فجذبني.

سألته: ماذا تريد؟

فقال لي بأنه يريدني أنا وسيعطيني مالاً.

صرخت ودفعتة، لكنه كان قوي البنية.

سحبني، وأدخلني إلى غرفة نوم مجاورة لغرفة الضيوف،
وأمرني بالاستسلام للأمر الواقع، والاستمتاع باللحظة.

صرخت، وحاولت الخروج، لكنه كان قد أغلق الباب، ودفعني
نحو السرير.

انقض عليّ، وقال لي: لا يحق لمشردة مثلك أن ترفض شاباً
غنياً مثلي، أنت فتاة شارع، لقيطة، بنت حرام، حلال لي،
ولأمثالي.

ارتمى عليّ، وأخذ بجذبي وبتقطيع ملابسني، وأنا أصرخ،
وأحاول دفعه.

رجوته، شتمته، لا فائدة.

أخذت مزهرية كانت بجواري، وحاولت أن أضربه على رأسه،
ولم أستطع.

تمكن مني، وواصل استمتاعه بجريمته، وأنا أبكي.

أمرني بالسكوت، وأن أعيش اللحظة..

شتمته، فأمرني بالسكوت، وإلا سيقتلني.

صرخت متألمة، وهو يضحك.

قام من السرير بعد أن أنهى مهمته باحتقار وهو يبتسم، ثم أشعل سيجارته، وكأنه يحاول أن تزيل برائحتها الكاتمة قذارة رائحته، وخرج بعد أن انتهى منها دون أن ينظر إليّ.

نظرت إلى نفسي، وإلى الدماء من حولي.

جلست أبكي على ما أصابني، ولا أعرف كيف أخرج.

حاولت فتح الباب دون فائدة.

جلست في زاوية الغرفة أوصل بكائي، وأتمنى الموت.

فكرت بالانتحار، وبحثت عن أي آلة حادة في الغرفة؛ ولم أجد.

نعم، فما فائدة أن أعيش بعد ذلك؟

مرت ساعة، وإذا بالباب يفتح.

قمت فزعة، فلعله عاد مرة أخرى.

دخل وهو ينظر إليّ..

إنه صديقه الذي كان معه في السيارة.

هجم عليّ كالذئب.

لم أستطع مقاومته.

شدني بقوة، ورائحة الشراب تفوح منه، وألقاني على السرير

وهجم عليّ، ثم تركني وغادر.

واصلت بكائي، ولم أستطع الحراك من على السرير، والذي

اختلطت فيها دمائي بدموعي، ثم بعد ساعة يُفتح الباب مرة

أخرى، وإذ بصديق لهما يدخل عليّ، ويهجم كصاحبيه.

توسلت إليه أن يتركني.

رجوته.

بكيته له.

لكنه فعل فعلته ثم غادر.

أغمي عليّ، ولم أشعر بنفسي إلا وأنا ملقى بي عند فيلا

مهجورة قريبة من البحر، بملابسي الممزقة، وعباءتي التي

سترت ما انكشف مني.

كانت الساعة تشير إلى التاسعة مساءً.

حاولت أن أقوم من مكاني، لكنني لم أستطع.

مكثت في ذلك المكان المهجور حتى الصباح، ثم حاولت العودة.

كنت لا أقوى على المشي، وكان جسمي يؤلمني.

تماسكت وخرجت من سور الفيلا المهجورة.

أوقفت سيارة أجرة، وأخبرته بأنني سأدفع الحساب عند وصولي إلى وجهتي.

وصلت بعد نصف ساعة، وطلبت من سلمي أن تدفع للسائق.

سألته سلمي بخوف عن سبب تأخري، وعا أصابني.

بكيت واحتضنتني.

جاء العم حسن على صوت بكائي، وقصصت لهما ما حدث.

غضب العم حسن، ثم غادرنا فوراً، وجاء لنا بطعام وعصير، وأمرني وسلمي بأن نتناول الطعام، ثم سألني عن مواصفاتهم، أو علامة ليستدل بها عليهم.

أخبرته أنني لم أنتبه لأي شيء من ذلك، سوى أنهما شابين يبدو عليهما الثراء، يركبان سيارة فخمة بيضاء اللون.

غادرنا العم حسن مرة أخرى، أما سلمى فمكثت معي، وذهبت بي إلى المسجد؛ لأستحم، وأغير ملابسي، ثم طلبت من العاملة في المسجد بأن نمكث في المسجد حتى صلاة الظهر.

رأفت العاملة بحالنا بعد أن رأت تعبني الشديد.

مرت الأيام ولم أستطع تجاوز الصدمة.

كنت أبكي كلما أتذكر الحادثة، وكانت سلمى، والعم حسن يصبراني.

لم أخرج بعدها إلى العمل عند الإشارات، لكن سلمى واصلت عملها بحذر شديد.

بعد شهر من الحادثة بدأت أشعر بالتعب.

بدأت أشعر كذلك بدوار يأتيني من فترة لأخرى.

جاءت لي سلمى بعصير ليمون، لعل التعب يذهب، لكن دون فائدة.

ذهبت بي سلمى إلى منزل الدكتورة صفية، والتي تسكن معنا في نفس الحي.

هي شابة حديثة التخرج من الجامعة، وتعمل في مستوصف قريب من الحي.

كانت الدكتورة صفية متعاونة جدًا معنا، وطلبت منا بأن نلحق بها بعد ساعة إلى المستوصف، وستعالجني هناك دون أن أرفع شيئاً.

عرف العم حسن بذهابنا لكنه رفض.

تعجبت من رفض العم حسن، وهو الرجل العطوف علينا.

طلب منا الانتظار، وأن لا نخرج من المكان دون إخباره، وغادر؛ ثم عاد إلينا بعد عشر دقائق؛ يحمل معه علبة صغيرة؛ بها جهاز اختبار، أعطاني إياها، ثم طلب مني أن أذهب إلى دورات مياه المسجد لأعمل تحليل اختبار الحمل!

تعجبت كذلك من طلبه، وذهبت أنا وسلمى، وبعد دقائق عادت إليه سلمى بالنتيجة، أما أنا فمكثت في المسجد أبكي.

تغيرت ملامحه، بعد أن رأى النتيجة.

ثم ذهب إلى المسجد، وناداني.

أعادني إلى غرفتي، وأمرني بالراحة، وأخذ يصبرني.

أنا حامل.. نعم.

كل حقارة الدنيا وما فيها لا تساوي هذه الكلمة بكل ما فيها من ألم؛ عندما تُقال لفتاة بمثل حالتي.

نعم هو حلم كل فتاة، لكن ذلك بالنسبة لي يعني كل الأم الدنيا.

كم تمنيت أن تكون لي عائلة، وأطفال، لكن أمنيتي جاءت بهذه الطريقة التي لم أتوقعها يوماً.

ياترى.. كيف حالهم هم؟

من فعلوا جريمتهم ورموني؟

هل من الممكن أن يكون في هذا العالم أمثال هؤلاء؟

أين هم الآن؟

كم من ضحية خططوا لها بعد أن انتهوا مني؟

كيف يفكرون؟

كيف للمجرم أن ينام بعد أن يفعل جريمته؟

ماذا عن ضمايرهم؟

هل الضمير دائمًا شيء جيد؟ أم أن صاحبه بإجرامه قد يؤثر على ذلك الضمير؛ ليصبح تأثيره سلبيًا؟ ويتوقف من أن يكون صوت التائب الذي بداخل الإنسان.

ما ذنبي أنا؟

لم الضحية دائمًا هي من تدفع الثمن؟

لم لا يعاملنا المجتمع كضحايا؟ لا كشركاء في الجريمة؟ حتى نستطيع مواجهة ما أصابنا؟

لم لا يحلون الجريمة ويفصلونها، كما يحلون مباريات كرة القدم؟

لم الضحايا لا يشتركون في رسم نهاية أي جريمة؟ فقط يفعل ذلك المجرمون وحدهم؟

على الأقل حتى لا تُصنع لنا نهاية مأساوية بمثل هذا القبح.

لم الألم فقط لنا دون غيرنا؟

يحل بنا الألم في ثوانٍ معدودة، لكننا بحاجة إلى سنوات حتى نتجاوزه.

حتى تذهب آثار ذلك الألم، ونعود لنعيش من جديد، وأحياناً نموت دون أن نستطيع العودة، أو النهوض من جديد.

نموت بحسرتنا، وما زال المجرمون مستمتعين بجريمتهم.

ومستمتعون في البحث عن ضحايا آخرين.

إنها حقارة الدنيا ولا شك.

حرص العم حسن على أن لا نخبر أحدًا بما حدث، إلى أن يجد حلًا للمشكلة.

كانت فترة صعبًا عليّ، ولا يمكن أن تتعرض فتاة لما هو أقسى من ذلك.

حاولت عمل كل شيء لإخراج الجنين؛ دون فائدة.

أنفقت ما قمت بادخاره، وساعدتني سلمى بما معها من مال؛ من أجل شراء بعض الأدوية لإخراج ما في بطني؛ كذلك دون فائدة.

حاولت أن ألحق الأذى بنفسى، ولم يتحقق لي ما أريد.

أخذ العم حسن بتصويري، وبأن الله قد يريد أن يمنحني من يكون لي عونًا في هذه الحياة بعد أن أصبحت وحيدة فيها.

ياااه.. كيف يكون ذلك؟

مازلت صغيرة في العمر، والمستقبل أمامي.

هل انتهى كل شيء؟

هل ضاعت حياتي؟

أخبرني بأنه لا بد لي من الإيمان والرضى بقضائه سبحانه.

لم يكن الحمل بالنسبة لي هو المشكلة فقط، بل كيف سيتقبل العالم خبر حملي.

كيف سأستطيع العيش بين الناس؛ ومعني طفل؟

لقد تعرضت للاغتصاب، وبطريقة بشعة، ولن يصدقني أحد، مهما تكلمت.

كيف لمشردة مثلي تثبت طهارتها من كل ذلك، ودليل تهمتها قبل أن يكون داخل أحشائها؛ هو في طريقة حياتها.

من سيصدق بأن شابًا غنيًا تناوب هو وأصدقائه على مشردة؟

سينظرون إليَّ على أنني بنت حرام، ليس لها قيمة، هي من عرضت نفسها عليه طمعًا في مال، وبأنه وأصدقائه نبلاء، من أبناء أسر كريمة.

لم الفقراء هم موضع تهمة دائمًا؟

أصابني شعور مؤلم.

شعور يخبرني بأن كل شيء قد انتهى في حياتي، وبأن الدنيا قد أظلمت في وجهي.

هل هذا هو كل شيء؟

هو الحل الأخير لما أنا فيه؟

أن أقبل بواقعي، وأنتظر طفلي، وأقدمه إلى العالم؟

كيف سأقدمه إلى العالم؟

ماذا سأقول لهم عنه؟

ألم تكن هنالك طريقة أجمل لأحمل وأنجب فيها؟

أليس من حقي كفتاة أن أفرح، وأحيى حياة كريمة؟

لا أعترض على قضاء الله وأمره، لكنني أشعر بأن كل شيء قد

انتهى في حياتي، ولولا إيماني بالله لقتلت نفسي؛ وارتحت من

هذه الدنيا.

مضت الأيام ولم أكن أعرف ماذا أفعل.

قررت أخيرًا ترك المكان.

ولم لا أترك المكان؟

الناس هنا يعرفونني، وسمعتي طيبة بينهم، ولا أريد تشويهها.

أخبرت العم حسن، وسلمى بأنني سأذهب إلى المدينة الشمالية، إلى أن أضع مولودي ثم أعود.

كنت في الشهر الرابع، وبطني بدأت تكبر.

كانت فكرة منطقية، لذلك لم يعترضوا، سوى أن سلمى كانت متألّمة لفقدي كل هذه الشهور، لذلك اقترحت عليّ بأن تذهب معي، لكنني رفضت ذلك، فعلى الأقل هي تعمل هنا، ولا نعلم كيف سيكون مصيرنا في المدينة الشمالية.

في أحيان كثيرة تأخذنا الحياة إلى منعطفات لا نريدها، وعلينا أن نسلكها لنواصل الحياة.

نسلكها لأنه ليس هنالك طريق غيرها.

هي الخيار الوحيد، والخيار الوحيد قد يهون علينا ملامة أنفسنا إن وجدناه مغلقًا عند نهايته.

أعطاني العم حسن مائة وخمسين ورقة، ودفع عني كذلك أجرة
القطار، وأعطاني رقم صديق له عندما أحتاج إلى شيء.

استغربت من إعطائي للرقم، وأن له أصدقاء في تلك المدينة
رغم أنه مشرد.

ركبت القطار، وتوجهت إلى المدينة الشمالية.

وصلت بعد أربع ساعات إلى هناك، ولا أدري أين سأذهب بعد
ذلك.

مدينة بسيطة، أصغر بكثير من العاصمة، ومن مدينتي، وهي
مدينة جبلية زراعية تبعد كثيرًا عن البحر، يعمل أغلب أهلها
بالزراعة، وتجارة الجلود، وتصدير منتجاتهم إلى المدن
الأخرى، وتتميز بجوها الذي يميل إلى البرودة.

حياة جديدة ومؤقتة سأبدؤها هنا في هذا المكان، ولا أعرف بعد
عن تفاصيلها.

عدت إلى نقطة الصفر من جديد، لكن هذه المرة لست وحدي،
بل في داخلي طفل يوشك على أن يرى الحياة.

لا أعتقد بأنني أستطيع أن أعيش في هذه المدينة دون سكن،
فبردها يبدو بأنه سيكون شديدًا في المساء.

قررت عدم الاتصال على صديق العم حسن، فلم أكن أرغب بأن أثقل على أحد.

فكرت بتناول الطعام، ووجدت ضالتي عند مطعم لبيع الأكلات الشعبية.

كان لا بد لي من الأكل، فعلى الأقل من أجل جنيني.

أشتريت وجبتي، ولم أستطع تناولها في المطعم، فليس هنالك قسم للعائلات، لذلك خرجت من المطعم، وبحثت عن مكان لأتناول فيه طعامي، فلمحتُ حديقة بجوار المطعم، جلست فيها تحت ظل شجرة، وتناولت الطعام.

بينما كنت أتناول طعامي؛ كانت هنالك امرأة تراقبني من قبل دخولي إلى المطعم، حتى انتهيت من أكلي.

اقتربت مني وسألتنني إن كنت غريبة، أو أنني أحتاج إلى مساعدة.

امرأة يقترب عمرها من الخمسين عامًا، يبدو ذلك من ملامحها. جلست بجواري، وأخبرتني بأنها قد شعرت بحاجتي إلى المساعدة.

ارتحت كثيرًا لها، وجلسنا سوية في الحديقة.

أخبرتها بأنني حامل، وأنني هربت من بيت زوجي بسبب إدمانه للكحول، وليس لديّ أهل هنا، لذلك سأبحث عن مكان لأبيت فيه.

أصرت عليّ بأن أمكث عندها، فابنها مسافر لبيع محاصيل مزرعتهم، وسيعود بعد أسبوع.

ذهبت معها، فقد كانت تسكن في أطراف المدينة، حيث هناك تقع مزرعتهم.

مزرعة كبيرة وجميلة، يُزرع بها بعض أنواع الخضار والفاكهة، ويتوسطها منزل جميل لهم.

حضرت لي العمة صالحة العشاء، وتناولناه سوياً، أنا وهي وزوجة ابنها كريم، وأولاده الثلاثة، والذين كانوا يسكنون معها في نفس المنزل، ثم أدخلتني إلى إحدى الغرف، وجاءت لي ببطانية لأنام بعد عناء السفر، وذهبت هي إلى غرفتها.

كانت أسرة لطيفة جداً.

لاحظت أن هنالك فتاتان تأتيان كل صباح للعمل في المزرعة حتى العصر، وأخبرتني العمة صالحة بأنهن ثلاث، لكن

إحداهن تركت العمل بعد زواجها، لذلك تحمست وأخبرتها
برغبتي في العمل؛ ورحبت كثيرًا بذلك.

مضى أسبوع على مكوثي عندها، كنت أعمل لديها، وأنام في
غرفة بجوار البيت، تطل نافذتها على المزرعة، وكنت أتناول
طعامي مما يطبخونه داخل المنزل.

بعد نهاية الأسبوع جاء ابنها كريم من السفر، رجل طيب في
الثلاثين من عمره، سلم على والدته، ثم توجه إلى غرفته، ليرى
زوجته وأولاده.

قضيت أجمل أيامي في المزرعة، وتمنيت لو كانت سلمى معي
لنعمل هنا ونعيش، وهذا ما فكرت فيه، لكنني تركت كل شيء
للأيام، فتفكيرتي بولادتي هو ما يشغل بالي الآن.

كنت بين حين وآخر اتصل على سلمى، ومنتبادل أخبار بعضنا،
إلى أن بدأت لا ترد على اتصالاتي بها، ثم أصبح جوالها خارج
الخدمة.

حاولت الاتصال بها مرات أخرى، لكنني لم أستطع الوصول
إليها، كذلك العم حسن لم يكن يملك أي جهاز هاتف لأتصل
عليه وأسأله عنها.

عذرتها بسبب أنه ربما تم إلغاء شريحتها، وهذا أمر طبيعي قد يحدث لنا، فنحن مشردات، ولا نستطيع شراء شريحة هاتف؛ بسبب عدم وجود وثائق معنا، فنضطر إلى شرائها من المحلات بدون اسم، مما يعرضها للحظر في أي وقت.

نعم، فقد مزقت بطاقتي حتى لا يعرفني أحد؛ وأضر بسمعة إخوتي بعد أن أصبحت مشردة، فهم إخوتي على كل حال رغم قسوتهم.

مضت الأيام، وبدأت أشعر باقتراب ولادتي.

فكرت بالمغادرة، فلو مكثت هنا إلى ما بعد الولادة لشكت العمه صالحة في أمري.

طلبت من العمه صالحة بأن أعود إلى مدينتي حتى ألد عند زوجي، فرغم كل شيء لا بد له من أن يرى طفله عند ولادته.

وافقت العمه، وطلبت من ابنها كريم أن يوصلني إلى محطة القطار، بعد أن أعطتني أجرتي وزيادة، وبعد أن وعدتها بأنني سأصل عليها بشكل مستمر.

وصلت إلى محطة القطار، وغادر ابنها كريم، ولا أدري ماذا أفعل.

عادت الآلام من جديد، وشعرت بأن الليلة هي موعد ولادتي. أوقفت سيارة أجرة، وطلبت منه بأن يتوجه بي إلى المستشفى الحكومي.

وصلت، وطلب لي موظف الاستقبال مباشرة كرسي متحرك لأجلس عليه، ثم طلب مني الأوراق لاستكمال الإجراءات.

اعتذرت بعدم حملها، فرفضوا إدخالها رغم الآلام التي كنت أعيشها.

كنت أرى الموت، لكنني كنت أرى قسوتهم بشكل أوضح.

أين إنسانيتهم التي أقسموا عليها؟

لماذا أصبحت قيمتنا من خلال الأوراق التي نحصل عليها؟

ألا تكفي أجسادنا لإثبات أننا بشر؟

حاولت معهم مرة أخرى دون فائدة.

تركتهم وتوجهت إلى مستشفى خاص.

طلبوا مني مبلغًا من المال تحت الحساب، وكانت ألف

وخمسمائة ورقة.

كان كل ما أحمله من عملي عند العمة صالحة هو ألفي ورقة.

أعطيتهم المبلغ دون تفكير، ثم أدخلوني إلى غرفة الولادة

مباشرة.

صوت بكائه أنساني كل شي.

أنساني التعب، والألم، والمعاناة.

منذ سنوات لم أبتسم مثل هذه الليلة؛ رغم معاناة ولادتي.

كانت سعادتني به كبيرة، حتى أنني بكيت من الفرح.

مبروك.. إنه ولد.

قالتها لي الممرضة، وهي تقدمه لي.

فرحت بهذه الكلمة كثيرًا.

أجمل خبر أسمعه منذ خروجي من بيتنا.

جاء من سيكون سنًا لي في هذه الحياة.

لقد صدقت يا عم حسن.

لعله سندي.

لعله يميني.

نظرت إليه كثيرًا، وشعرت بالطمأنينة.

وبالفخر.

أرضعته لأول مرة في حياته، وفي حياتي كذلك، فليس لنا إلا

بعضنا.

كنت أغني له.

أضحك له.

ما زال في يومه الأول، لكنه يعرفني جيدًا.

لا يسكت إلا إذا حملته.

لا يقبل أحد غيري.

لا يرتاح إلا في صدري.

يومها سهرت معه.

لم أفكر براحتي ولا بالنوم، وهل هنالك نوم من الأصل؟

بل حتى عندما ينام كنت أنظر إليه.

أراقب أنفاسه.

وأتحسس جسده.

مر يوم، وإدارة المستشفى تنتظر أوراقى الثبوتية، وأوراق زوجى من أجل استكمال الإجراءات.

كيف أحضرها لهم؟

ماذا أقول لهم عن والده؟

ماذا أفعل للخروج من هذه المصيبة التى لم أحسب لها أى حساب.

أخذت أفكر، وأفكر.

لم يكن أمامى سوى هذا الحل، ولا بد لى من فعله.

انتظرت حتى المساء، ونزلت إلى حديقة المستشفى، ثم هربت بطفلى.

مازال جسمى منهكًا، لكن لم يكن لى أى حل آخر.

خرجت إلى الشارع، ولا أدرى إلى أين سأذهب، لكن المهم أننى استطعت الخروج من المستشفى.

أوقفت سيارة أجرة، وذهبت إلى فندق بعيد عن المستشفى.

كان فندقًا بسيطًا، وهذا ما حرصت عليه حتى لا تنفذ نقودى.

مكثت بالفندق عدة أيام حتى اقترب ما معي من مال على النفاذ،
ولم يبقى معي إلا ثلاث ورقات.

كان لا بد لي من أن أعود إلى العاصمة، لكن لا بد لي أولاً من
توفير قيمة التذكرة.

أخذت أفكر بحل أستطيع من خلاله توفير قيمة تلك التذكرة، فلم
أكن أتوقع بأنني سأدفع تكاليف الولادة.

فكرت بالعمل، لكن أين سأضع صغيري؟

أخذت بالبكاء، لا أدري ماذا أفعل.

حرصى على توفير كل سبل الراحة لصغيري هو مبلغ
طموحي.

خرجت من الفندق.

تجولت في المدينة بحثاً عن حل.

كل من يرانا يشفق علينا، ويريد أن يتصدق عليّ.

أحدهم أعطاني وصغيري مائة ورقة.

تضايقت..

كيف لي أن أقبل بأن يعيش ابني هذه العيشة.

هل من المعقول أن ينشأ في الشارع؟
يعيش على إحسان الناس، ويجوب معي الشوارع والمساجد
بحثاً عن من يتصدق علينا.
لا أريد له بأن يذوق ماذقته.
هذه أول ليلة ينام فيها ابني في الشارع.
كان الجو باردًا، ولم أجد ما أغطيه به سوى عباءتي.
نمنا رغم برودة الطقس.
استيقظت بعد ساعة على بكائه.
كان يرتجف، ويشعر بالبرد.
أطعمته، واحتضنته، وأرويته بدموعي.
أخذت أفكر، وأفكر..
هل سيعيش كمشرد؟
هل سيخرج معي لبيع المناديل، والورود عند الإشارات؟
هل سألفه بقطعة قماش، وأحمله على ظهري كما تفعل البعض.
هل سينتظر شفقة المحسنين له؟

كيف سينظر الناس إليه؟

هل سيقولون عنه ابن مشردة؟

أم ابن حرام؟

كيف يحكمون عليه بأنه ابن حرام والذنب ليس ذنبه؟

لم يختار لنفسه هذه الطريقة.

ولم تكن أمه بغياً.

من عجائب هذه الدنيا أن يأتي مغتصب، أو ذئب بشري هتك
أعراض الفتيات دون مسؤولية؛ ليصف من ليس له ذنب بأنه
ابن حرام.

أن يأتي سارق لأموال الشعب؛ ويصف من ليس له ذنب بأنه
ابن حرام.

أن يأتي تاجر آكل لحقوق موظفيه، مستغلاً حاجة الناس له؛
ليصف من ليس له ذنب بأنه ابن حرام.

أن يأتي عديم إنسانية لم ينظر لضعف إنسان أمامه؛ ليصف من
ليس له ذنب بأنه ابن حرام.

من ابن الحرام هنا؟

أين عدالة المجتمع؟

كيف يطلقون على ابني .. ابن حرام؟

تذكرت..

أنا لم أسميه بعد!

لكن.. ماذا سأسميه؟

ماذا؟

سأسميه عزيز؛ نعم عزيز.

أريده أن يحيا عزيزًا.

أن يحيا مفتخرًا بنفسه، ومعتزًا بها.

لكن كيف سأستخرج له الأوراق؟

هل سيعيش بدون أوراق؟

أريده أن يكبر، وأن يدخل المدرسة.

أن يدخل الجامعة.

أريده أن يصبح له شأن.

بكيت من أجل مستقبله، وكيف أنني لم أستطع حتى تأمين
حاضره.

وأخيراً قررت.

كان قراراً مؤلماً، لكنها الحياة.

من أجل أن يحيا من تحب لابد من أن تموت أنت.

لماذا أصبحت حياة من نحب مرتبطة بموتنا؟

لم لا نحيا جميعاً؟

لم لا نتقبلنا الحياة دون أن نطلب منا تنازلات؟

لم التضحيات؟

لذلك لا بد لي من أن أمضي في قراري.

قررت أن أموت.

نعم.

ابتعاد طفلي عني يعني موتي.

قررت بأن أذهب به إلى عائلة لتعتني به، وأعيش بالقرب منها.

لا بأس بأن أبتعد عنه قليلاً، المهم أن يعيش كريماً.

أن لا يعيش عيشتي.

لكن أين أذهب به؟

لمن سأسلمه دون أن يروني؟

دون أن يعرفوا ابن من هو؟

دون أن يعاينوه بي مستقبلاً؟

هل أصبحت سمعتي سيئة إلى هذه الدرجة؛ حتى يعاينوا ابني
بي؟

فكرت بعائلة السيد سليمان.

عائلة طيبة، تسكن في الحي الذي نسكن فيه أنا وسلمى، وتملك
الكثير من المال.

هم ما زالوا في الحي، ولم يتركوه لأن السيد سليمان فضل
البقاء في بيت العائلة بعد أن خرج منه كل إخوته، وهو رجل لم
يرزقه الله بطفل، رغم مضي اثنين وعشرين عامًا على زواجه
من حميدة.

نظرت إلى المائة ورقة التي أعطاني إياها أحد المحسنين، إنها
تكفي ثمنًا لتذكرة القطار وزيادة، فتوجهت وابني مباشرة إلى

محطة القطار، ولحقت بآخر رحلة لهذه الليلة، وعدت إلى
العاصمة.

وصلت العاصمة قبل الفجر بساعة.

كان الجو باردًا، وكانت الشوارع أخف حركة من النهار،
والمساء.

نظرت إلى طفلي، أغرقته بدموعي.

تنحيت جانبًا من أجل ان أرضعه.

ربما هذه آخر مرة ترضع فيها من ثدي أمك يا صغيري،
أعذرنى.. فالحياة كانت قاسية جدًا معنا، لذلك لا بد لي من أن
أختار لك حياة كريمة تحيا فيها.

حياة تُبقي لك فيها الكثير من الذكريات السعيدة بعيدًا عن أي
معاناة.

لن تغفل عيني عنك، وسأظل بجوارك رغم كل شيء.

أخذت باحتضانه وأنا أبكي.

لن تفهم ما سأفعله الآن، لكنني أتمنى أن تفهم ذلك عندما
تكبر، وستعرف حينها أن الأمر لم يكن بيدي.

وضعت ابني في سلة وغطيته ببطانية، ووضعت ورقة بجانبه،
كتبت فيها:

(احتفظوا باسمه.. (عزيز) هو الشيء الوحيد الذي أستطيع أن أقدمه له).

ثم تركته قبل أذان الفجر عند باب بيت سليمان.

ما هي إلا دقائق حتى خرج سليمان، ليتفاجأ به ويدخله إلى بيته. انتظرت حتى خرج مرة أخرى؛ بعد أن وضعه في المنزل، وذهب هو إلى المسجد، حتى أطمئن بأنه لن يذهب به إلى مكان آخر.

استمررت بالمراقبة إلى أن طلع الصباح.

نسيت سلمى، ونسيت كل شيء.

تأكدت من ذهاب سليمان إلى عمله، وأن عزيز مازال موجودًا في بيته.

اطمأننت.

أخذت أبكي في مكاني، وتألمت كثيرًا لهذا القرار.

فكرت بالذهاب إلى سلمى، على أن أعود عند الظهر، حتى لا أثير الريبة بجلوسي هنا.

كان حرصي على الاطمئنان على سلمى كبير، فقد مضى شهر
ونصف دون أن نتحدث إلى بعضنا.

مررت بديكان العم صالح، والذي سألني عن غيابي.

أخبرته بأنني ذهبت إلى مدينة أخرى من أجل البحث عن عمل.

ذهبت إلى غرفتي أنا وسلمى، ولم أجد سلمى!

جاء العم حسن، وسألني عن حالي، وبسعادته لعودتي.

قصصت عليه كل شي.

فرح كثيرًا بالخطوة التي اتخذتها، وبأن ذلك فيه خير لطفلي،

وأمرني بالثبات، وبأن أكون أقوى، وبأن المستقبل ينتظرنني.

سألته عن سلمى.

أخبرني بموتها.

ماتت سلمى.

نعم .. ماتت.

أظلمت الدنيا بوجهي مرة أخرى.

أخذت بالبكاء.

سلمى، رفيقتي، وصديقتي الباقية لي في هذا العالم.

ماتت سلمى ولم أكن بجانبها.

سألته عن سبب موتها؟

أخبرني بأنها قد مرضت، وأدخلوها إلى المستشفى، وماتت هناك.

ازداد حزني عليها، وأخذت بالبكاء.

أبكي على نهايتها، وكيف أنها لم تستمتع بحياتها.

أبكي على فقدانها، فقد كانت رفيقتي الصادقة.

أبكي على كل شيء.

أخذت بالنظر إلى كل زوايا غرفتنا البسيطة، وأتذكرها.

أتذكر ضحكتها.

وأتذكر كيف اقتسمنا المعاناة فيها.

مضت الأيام وأنا أبكي على طفلي عزيز، وعلى سلمى.

لم تكن سلمى بالنسبة لي صديقة عادية، بل أخت.

أخت عوضتني عن نعمة.

وعن كل شيء.

ماتت سلمى، وشعرت بأنني قد فقدت يماني.

وعصاي التي أتوكأ عليها في هذا العالم المليئ بالعراقيل التي
نراها ونحن نسلك دروب حياتنا.

مضت الأيام، وأنا أتتبع أخبار عزيز.

عرفت من أهل الحي بأن سليمان قد أنجبت زوجته له أخيراً ابناً، رغم تعجب البعض منهم لعدم علمهم بحملها؛ ومراحل كبر بطنها.

يقولون بأن بعض النساء لا يظهر عليهن ذلك، وبأنها خافت من العين، لذلك أخفت الأمر.

علمت كذلك بأنه قد سماه عزيز، واستخرج له أوراقاً رسمية، وأضافه إلى اسمه، حيث ذكر لهم بأن زوجته قد ولدت في المنزل، وليس في المستشفى، حيث أن الوقت لم يسعفه لنقلها إلى هناك.

عزيز سليمان.

هذا هو اسمه الذي سيحمله طوال عمره.

تألمت لذلك.

تمنيت لو أنه ذكر لهم بأنه قد وجده عند باب بيته.

وأنه يريد أن يتبناه.

تمنيت لو أنني أذهب وأبوح بكل شيء.

لكن ماذا أقول لهم؟

وماذا سأقدم أنا لابني؟

لابد أن يأتي يوم ويفهم فيه عزيز كل شيء.

نعم لقد شاهدت كيف يكون ذلك في المسلسلات، المهم أن ابني الآن يحيا حياة كريمة، وأصبحت لديه أوراق، وسيذهب إلى المدرسة.

هذا فقط ما يهمني الآن، وما أردت له أن يتحقق.

وهكذا هي الحياة، لابد فيها من تضحيات حتى تستمر.

المهم أنت يا عزيز، ولا شيء آخر.

واصلت عملي عند الإشارات، وبعد عودتي من عملي كنت
أمكث ساعة عند بيت سليمان؛ أنظر إلى الغرفة التي ينام فيها
عزيز قبل ذهابي إلى مكان نومي.

كنت أشعر أحياناً بجوعه، وبحاجته إلى الحليب.

كان ثدياي يخبراني بذلك.

كنت أتألم من أجله، لكن لم يكن أمامي أنا وعزيز أي حل آخر.

نعم، لقد شاركني عزيز قرارنا.

لم يكن قراري وحدي.

شاركني بيكائه.

شاركني ببروده جسمه.

بنومه في الشارع.

وكان ذلك القرار حتى يصبح عزيزاً.

مرت سنتين، وبدأ عزيز يكبر.

مرت سنتين عانيت فيها مرارة فراق عزيز.

لم تكن بالشيء السهل، بل كانت عمراً من الألم الذي أتجرعه.

كنت أرى ابني يكبر أمامي ولا أستطيع تقبيله.

كم تمنيت لو قمت باحتضانه.

كم تمنيت أن أشمه.

أن أرضعه.

لقد جف ثديي منذ زمن، ومازال عزيز يريد أن يتناول الحليب،
لكنها الحياة بكل قسوتها لاتزال تصر على أن تذيقني من
مرارتها.

أخذت أصبر نفسي، ولعل الله يحدث من بعد ذلك أمراً.

في أحد الأيام، وبينما كنت أواصل عملي عند الإشارات،
لمحت نادية بثياب قديمة، تمشي على قدميها الحافيتين.

تعجبت من حالها!

إنها نادية التي أتذكرها جيداً.

تبعتها.

ناديتها..

التفتت إليّ.

بادرتي قائلة: هل لديك طعام؟

طلبت منها أن تسير معي، أجلستها على كرسي حديقة، وطلبت
منها أن تنتظر.

أتيت لها بأرز، وملوخية، وعصير، وماء.

أكلنا سويةً.

لم تتذكرني، لكنني أتذكرها جيداً.

أتذكر حين التقينا قبل سنوات عندما تم جلبنا إلى حفل غنائي
مفتوح.

سألتها عن سلوى.

أخبرتني بأنها لا تعرف عنها أي شيء.

سألتها عن حالها، وكيف تغير.

نزلت دمعة على خدها، ثم طلبت أن تغادر.

أعطيتها عشر ورقات، فرحت بها كثيرًا، وغادرت.

لا أستطيع أن أفعل لها أكثر من ذلك.

دون أن تنطق بحرف واحد؛ فهمت قصتها.

لأنها لقيطة؛ لم يهتم بها أحد، وهي تجوب الشوارع الآن.

لم تهتم بها دار الأيتام التي كانت تسكن فيها.

تركتها بين أحضان الذئاب الذين استغلوها، ثم رموها في

الشارع.

أصبحت بلا قيمة.

هكذا يرونها.

مأذنها؟

اكتفت هي بالصمت، وبالباكاء على حالها، ولم يكتفي المجتمع

بشتمها، ووصفها بأنها بنت حرام.

في أحيان كثيرة لا نستطيع عمل أي شيء.

نُجبر على الصمت.

على الاكتفاء بالألم الذي تسببت أمور كثيرة لنا به.

صحيح أننا نتحمل جزءًا مما حدث لنا، وأنا قد أخطأنا، لكن

العالم لم يعطينا فرصة لأن نصلح من أنفسنا.

ذلك العالم الذي تسبب لنا بذلك الخطأ.

ليس ذلك تبريرًا، لأن العالم لا يسمح إلا للأقوياء فقط بأن

يبرروا لأنفسهم.

يسمح لهم بأن يصلحوا منها، وبالنهوض من جديد.

كنت أنتظر هذا اليوم بفارغ الصبر.

لقد مضت أربع سنوات أخرى على فراق عزيز، وأصبح عمره
الآن ست سنوات.

استيقظت قبل الفجر.

خرجت، وانتظرت خروجه من منزل سليمان.

إنه اليوم الأول لذهابه إلى المدرسة.

خرج مسرورًا، نشيطًا، بقميصه الأبيض، وبنطاله الأسود،
وتسريحة شعره الجميلة، ممسكًا بيد سليمان؟

رأيته حاملاً لشنطته الجديدة.

كانت عليها رسومات توم وجيري.

كم تمنيت لو خرجت معه لنختارها سويةً.

أن نضحك سويةً.

دمعت عيناى، وابتسمت.

لقد كبرت يا عزيز.

أخرجت ورقات من جيبى، وتمنيت لو أنني استطعت أن أعطيه
مصرف يومه.

ركب السيارة وغادر.
تمنيت الركوب معه.
أخذت أمشي باتجاه مدرسته.
لم تكن بعيدة.
أعرفها جيدًا، فكل أبناء الحي درسوا فيها الابتدائية.
لقد دخل إليها قبل أن أصل.
سمعت الإذاعة المدرسية، وترحيب مدير المدرسة بهم.
وأسماء زملائه.
سمعت اسمه بعد ذلك، وهم يفرزونهم على الفصول.
عزيز سليمان.
لماذا لم ينطقها المدير عزيز سماح؟
أنا أهله في هذا العالم فقط، وليس له أهل غيري.
لماذا يحمل ابني اسمًا مزيّفًا يعرفه به العالم؟
هل لأننا نعيش في عالم مزيّف؟
عالم تقضى حوائجه بالخداع والزور؟

ماذا لو كان عالمًا مثاليًا صادقًا؟

كنت سأقدم ابني للعالم، بكل فخر، وبغض النظر عن طريقة وجوده في هذه الدنيا.

كان العالم سيعذرني، لأنه سيتقبلني كضحية.

لا.. لن تكون هنالك ضحية، لأنه لن يجرؤ أحد على إيذائي.

بل لن أعيش كمشردة، لأنني إنسانة، وسيعاملونني كإنسانة، وستستشعر البلد بمسؤوليتها تجاهي.

صوت النشيد الوطني يرددونه الآن.

احفظه جيدًا، فقد رددته كثيرًا في صغري.

فيه معاني الوفاء والولاء، وفداء الوطن.

لماذا نقول في النشيد الوطني فقط بأننا نفدي الوطن؟ ونضحى من أجله؟

لم لا توجد كلمات في النشيد الوطني تبين لنا ما سيقدمه الوطن لأبنائه؟

يقولون بأن هنالك دستور فيه أن المواطن هو أعلى شيء عند الوطن.

لم أسمع الوطن يردد ذلك الدستور في التلفاز، ولا على نشرات
الأخبار؛ كما نردد نحن النشيد الوطني كل يوم.

هل أنا اليوم فعلاً أعلى شيء عند وطني كما يقول الدستور؟

إذاً لم أنا مشردة؟

أمارس روتيني اليومي دون جديد.

ودون صديقة ألجأ إليها..

لقد تَرَكت سلمى فراغًا كبيرًا في حياتي.

أه يا سلمى.. كم افتقدتك بجانبني.

كم تمنيت أن تشاهدي عزيز وهو يكبر.

كنت بين يوم وآخر أذهب إلى مدرسة عزيز، فقط لأرى
خروجه من المدرسة وأطمئن.

كان يخرج في نهاية دوامه المدرسي؛ ليجد سيارة سليمان
تنتظره، ثم تمضي به نحو المنزل.

كان ذلك المشهد لا يستغرق إلا عشرون ثانية فقط، لكنني كنت
أبذل ساعة من الانتظار من أجل أن أفوز بتلك اللحظات.

كنت أتحمل حرارة الشمس من أجل أن أراه، ورغم ذلك كنت
استمتع بتلك الثواني.

تلك الثواني التي هي أجمل لحظات يومي.

في أحد الأيام، وبينما كنت جالسة بالقرب من مدرسة عزيز
رأني.

نظر إلي، ثم اتجه نحوي مباشرة.

سألني: هل تنتظرين أحداً هنا؟

أجبتُه بلا.

سألني: هل أستطيع مساعدتكِ؟

شكرته، ثم ذهبت.

تكرر ذلك في اليوم التالي.

كان يعمل مراسلاً في نفس مدرسة عزيز.

شاب في منتصف الثلاثينات من عمره.

شعرت بالراحة نحوه.

جلس بالقرب مني، وأخذ يحدثني عن عمله في المدرسة.

استلطفت حديثه، فقد كنت أتمنى أن أعرف أخبار عزيز من

خلاله.

اسمه فارس، على خلق عالي، وأنيق جداً.

تكرر جلوسه بقربي.

شعرت بأنه يحاول أن يتقرب مني أكثر.

أخبرته بأنني أجلس هنا لأرتاح من تعبتي، وبأنني أعمل في مكان لا يبعد كثيرًا عن هنا، عند إشارات المرور.

لم أتحرج من قول ذلك صراحة، فعملي ليس عيبًا أتحرج منه، ومن أراد أن يحبني فليحبنى كما أنا.

قال لي بأنه يعرف ذلك، وقد وجدني أكثر من مرة عند الإشارات، لكن كل ذلك لا يهمه، فالأهم صدق الإنسان من داخله.

صارحني بحبه لي.

أظهرت له تضايقي من كلمته، لكنني شعرت بها، وابتسمت لأجلها دون أن أجعله يرى تلك الابتسامة.

كم كنت بحاجة إلى أن أسمع هذه الكلمة في وسط ما أعانيه في هذه الحياة.

هل كنت بحاجة إلى سماعها فعلاً؟

لقد أتعبتك الحياة يا سماح، حتى أنك قد نسيت نفسك.

نسيت كل شيء جميل كان من الممكن أن يغير من حياتك.

قد نهمل أنفسنا في وسط هذه الحياة، ومتاهاتها.

قد تشغلنا أمورًا نرى من خلالها أننا قد أنجزنا الكثير، وقدمنا الكثير، وحققنا ما نريد، لكننا لا نشعر بطعم السعادة.

نشعر فقط بأننا قد تعبنا ونحتاج إلى أن نرتاح لنستعيد طاقتنا من جديد، ورغم ذلك لا تتحقق لنا الراحة!

لا تتحقق لأننا لم نكن بحاجة إلى أن نريح أجسادنا بقدر حاجتنا إلى أن نغذي أرواحنا بمساحات من الحب.

أصبحت أنتظر حضوره..

أصبحت أهتم بمظهري كثيرًا، واجتهد في عملي من أجل شراء ملابس جديدة، و عطور، رغم قلة مدخولي المادي.

كنت محافظة على نفسي، فلم أتجاوز حدودي يومًا معه؛ ولو بالكلام، ولم يطلب مني شيئًا من ذلك، فقد كان صادقًا معي.

مرت ثلاثة أشهر، وهو يأتي إليّ كل يوم عند المدرسة ليتحدث معي.

أخبرني برغبته في خطبتي، وبأنه سيفتح والدته في ذلك.

فرحت، وأصابني الخوف أيضًا.

خوف من إخباره عن ما حدث لي قبل عدة سنوات.

هل أخبره عن ذلك؟

هل أخبره عن عزيز؟

هل سيصدقني؟

هل سيتمسك بي؟

ولم لا يتمسك بي، لقد رأني أبيع عند إشارات المرور، ولم يغير ذلك من قرار حبه لي.

أخذت أبكي وأنا أفكر.

لقد كانت لحظة عابرة لأولئك الوحوش البشرية.

كانت لحظة عابرة بالنسبة لهم، استطاعوا تجاوزها في لحظتها، أما أنا فمازلت؛ وسأستمر أعاني من آلامها وتبعاتها أبد الدهر.

فضلت أن أنتظر؛ ولا أصارحه بشيء.

مع كل يوم يزداد فارس اهتمامًا بي، وازداد به تعلقًا.

كنت أرى فيه المستقبل الذي سينتشلني مما أنا فيه.

مستقبلاً أستطيع أن أبني فيه نفسي من جديد، وأن أعيد عزيز إلى حضني.

عزمني ذات يوم في مطعم مشويات قريب من مدرسة عزيز.

لبيت دعوته، وخرجنا معًا.

تناولنا طعامنا، وتحدثنا عن أمور كثيرة تهمننا، وعن مستقبلنا.

أخبرني بأنه مصاب بمرض مزمن في عظامه يسبب له الألم من فترة لأخرى، وأن ذلك حال بينه وبين زواجه كل الفترة السابقة.

أخبرته بأن ذلك سيزيد من تمسكي به، وأن اهتمامي به سيكون مهمتي التي لن أتخلى عنها في يوم ما؛ حتى يشفى شفاءً تامًا مما أصابه.

فرح كثيرًا بما ذكرته له، وأخبرني بأنه كذلك لن يتخلى عني مهما حدث، وأن ما بيننا أكبر من أن يؤثر عليه أي شيء؛ مهما بلغت قوته.

مضت ستة أشهر أخرى، كانت عمرًا بالنسبة لي.

عمرًا تمنيت ألا ينتهي وألا يتوقف.

كانت الأشهر التسعة التي مضت؛ الماء الذي غسل بداخلي الكثير من الآلام.

راودتني مرة أخرى فكرة مصارحة فارس، وأن أحكي له ما حدث لي، خاصة بعد أن أخبرني عن مرضه، وفرحه بردة فعلي تجاه ذلك.

رغم ترددي الكبير، لكن لا بد عليّ من إخباره، فلا يحق لي أن أخفي أي شيء طالما عزم على خطبتي.

ما شجعني على ذلك هو أنني وجدت في فارس السند الذي اتكئ عليه.

وجدت فيه الوعد بأن لا شيء مهما كان من الممكن أن يؤثر على علاقتنا ببعضنا.

من الممكن أن يفرقنا، خاصة وأنا ما حدث لي لم يكن بيدي، فقد كنت ضحية.

كان كل منا كتابًا مفتوحًا للآخر، ولا ينبغي للكاتب أن يخفي صفحات من كتابه على قارئه؛ إذا أراد له أن يفهم الرواية.

كنت واثقة بأنه سيقدر ما حدث لي، وسيزيل عني تلك الآلام التي مازلت أعيشها منذ تلك الحادثة، رغم مضي كل تلك السنوات.

شعرت براحة وأنا أستشعر ذلك.

استشعر كيف ستكون راحتي بعد أن يستمع إليّ، ويزيل عني ما
أثقل كاهلي.

التقينا، وقصصت عليه كل شيء عني.

مع إخوتي بعد وفاة أمي نورية، وتركهم لي.

أخبرته عن حادثة اغتصابي، وعن عزيز.

كنت أنظر إلى عينيه وأنا أتحدث.

دمعت عينايا؛ وأنا أحكي له؛ وأتذكر ذلك اليوم، وانتظرت
عيناه تشاركني بدموعها.

انتظرت كلمة من شفثيه تغسل قلبي.

لم يرد.

ساد صمتنا لدقائق.

أخيرًا تحركت شفثاه..

أخبرني بأن ما حدث لي هو ابتلاء من رب العالمين، وأن
المواقف ستصنع مني فتاة أقوى.

عدت إلى غرفتي متأثرة بردة فعله.

هل أخبرته من أجل أن يذكرني بمواعظ، أو بكلام عن التنمية البشرية؟

هل هذا ما كان ينقصني حقاً؟

هل نسيت أن أبحث عن تلك الكلمات بين مقاطع اليوتيوب؟

تمنيت لو قال لي بأنه معي؛ كما قلتها له عندما أخبرني بمرضه.

كانت كلمة منه ستداوي جروح السنين التي ممرت بها.

ستحييني من جديد.

هل أخطأت بإخباري له؟

هل استعجلت؟

لا.. لا أعتقد بأنني استعجلت.

كان لا بد لي من أن أخبره على كل حال.

بالتأكيد سيعود إلى منزله، وسيفكر بما حدث لي.

يبدو أنه تأثر بما سمعه مني.

نعم..

سيعود غداً، وسيخبرني بأنه معي.

سيخبرني بأننا سنواجه المستقبل سويةً كما تواعدنا.

مضت الأيام، وبدأت أشعر بغياب فارس.

باعذاراته عن الجلوس معي بجانب مدرسة عزيز.

كان يعتذر بضغوط العمل، وبانشغالاته.

كان يأتي مرة، ويغيب مرات.

شعرت ببعده عني..

شعرت بفقده.

بغيابه..

بعد فترة أخبرني بأن والدته رفضت بأن يتزوج من غير ابنة أختها.

ذكر لي بأنه دخل مع والدته في نقاش طويل من أجلي، وأنه يريد أن يتزوج بمن اختارها، لكنه في نهاية الأمر لن يستطيع رفض طلبها، فهو ابنها الوحيد.

رأى بأنه من المهم لي بأن لا أنشغل عن عزيز بأي شيء آخر؛ فهو ابني، ولا بد لي من متابعته.

أخبرني برغم كل شيء بأنه سيستمر في التواصل معي، وبمساندتي، وبأنه لن يتركني وحيدة، وسيأتي دائمًا إلى هنا،

فكلانا لا يستطيع الاستغناء عن الآخر، وأنه في خدمتي لو
احتجت لأي شيء.

أخبرني بذلك، ولم تمضي فترة بسيطة إلا وقد اختفى تمامًا!

هكذا وبكل بساطة انتهى الأمر بالنسبة له.

تضايقت من تصرفه.

أين كلماته، ووعوده؟

لم فتح مساحات بيننا للحب، وهو يعلم بأنه لا بد لفتاة تعمل عند
الإشارات تحت هذه الظروف؛ بأن تكون خلفها قصصًا من
المعاناة؟

لم تخلي عني؛ فقط لأنه راجع حساباته؟

كان وفيًا، لكنه لم يستطع مواجهة ظروفه معي، كما فعلت ذلك
معه.

هل صحيح من أن الإنسان له طاقة معينة؟ حتى في الحب
والتضحية؟

هل تظهر كلماتنا ووعودنا في حالات الرخاء، ثم تختفي عند
المحن؟

كم هو مؤلم أن يغادرنا من نحب، لكن أحيانًا قد تكون طريقة مغادرتهم أكثر إيلامًا لنا.

كان باستطاعته المغادرة دون أن يخلق قصة بيرر من خلالها تركه لي، ودون أن يشعرنني من خلالها بأن وجودي أصبح ثقيلًا عليه، وهما يحول دون إكماله لحياته.

أعرف أنه كان في صراع داخلي مع نفسه قبل أن يقرر، لكنه قرر في النهاية.

قرر مايريحه هو فقط، ولم يفكر بي، وبمشاعري التي هانت عليه.

قارن حاله بحالي، خاصة بعد أن صارحته بقصتي.

لم تناسى الوعود؟ ومن أن كل منا سيعين الآخر على هذه الحياة؟

لم أم ينظر إليّ كضحية؟

كيف سيكون كل منا سندا للآخر لولا الابتلاءات؟

كيف يقرر عني في علاقتي بعزیز؟ ويرى بأن لا أنشغل بغير عزیز؟ هل كان يبحث بذلك عن سبب آخر يضيفه لأسباب ابتعاده عني، وليشعرنني بأن ابتعاده كان من أجلي؟

ما ألمني أكثر ليس تركه لي فقط؛ بل في أنني منحته كل ذكرياتي، وأسراري، وطننته صندوقي الأسود، ورفيقي أبد الدهر، فليس من السهل أن تمنح شخصًا كل ذلك؛ ثم يرحل بها معه.

لقد خذني فارس..

من الأتانية يا فارس أن تحدد لما بيننا من نهاية؛ دون أن تفكر بي وبشعوري، لايوجد مبرر لعدم مصارحتك لي بحقيقة رغبتك بالمغادرة دون اختلاق شيء.

إن صراعك الداخلي قبل مغادرتك لم يكن بسبب تركك لي، بل بسبب أنك كنت تريد أن تجد مبررًا يبعد عنك ملامة ضميرك لك.

إن كنت ترى أن من حقك اتخاذ ما تراه مناسبًا لك، فليس من حقك أن تشعرني بأنني ثقيلة عليك من خلال طريقة مغادرتك، وأن ترسم لي حياتي بعد أن تقرر مغادرتها.

كنت أعلم كل شيء.

قلتها له وأدرت ظهري.

كانت صفحة فارس مؤلمة بالنسبة لي؛ فلقد قتل فارس كل أمل كان من الممكن أن يحيني في يوم ما، فما فعله معي يجعلني من الصعب أن أثق في أي إنسان بعده، وأن أؤمن بأن هنالك من سينتشلني، وسيشعر بي؛ سوى نفسي.

لقد كان فارس كل شيء بالنسبة لي، وظننت أنني كنت كذلك بالنسبة له.

من المؤلم أن يخلق أحدا قصة لترك من يحب، إن كان يحبه فعلاً، ففرق بين أن يحب، وبين أن يحب لأنه يريد أن يحب.

أن بحثه عن أي سبب؛ فقط من أجل أن يتركني هو جرح آخر. جرح أكبر من تركه لي، لأنه هنا أشعرنني بأن علاقته بي أصبحت عثرة في طريق حياته.

عترة يحاول التخلص منها.

رغم كل شيء حرصت على أن أبقى أقوى، فقط من أجل نفسي، ومن أجل عزيز، فربما بذلك أكون قد قدمت شيئاً لنفسي التي أهملتها من أجل الآخرين.

عدت لمسكني البسيط، وإلى فراشي الذي أنام عليه.

شعرت بأن فراشي القاسي قد أَلْفني، ولم يعد يؤلمني، ربما لأنه يخشي فراقِي.

أو ربما لأن ظهري قد تعود على آلام ذلك الفراش؛ ولم يعد يشعر بتلك الآلام، كما تعودت أنا على صدمات الحياة، ورغم ذلك أعرف بأن ظهري يزداد سوءًا مع الأيام بسبب قسوة ذلك الفراش.

كيف للتعود أن يكون قاتلاً لصاحبه.

كيف أن البعض لا يشعرون بجرحهم لمن يحبون، لأنهم قد ألفوهم بقربهم.

كيف أنهم لم ينتبهوا إلى صبر من يحبونهم عليهم حفاظًا على ما تبقى منهم.

يصبرون على تلك الآلام فقط ليضلوا بقربهم.

أحيانًا الصمت لا يعني الرضا.

قد نبالغ بزلاتنا مع من نحب، ونظن بأن صمتهم رضا، ولا نعلم بأن هنالك ألم في الخفاء قد أصابهم، وأن صمتهم هو فقط من أجلنا.

هو تقدير لأيام مضت، وننسى بأنه ربما في لحظة ما؛ قد يتحول
الصمت لمغادرة، والأقسى لو كانت تلك المغادرة بصمت.

اليوم كان مميزًا عند كل أهل الحي، فالليلة عقد قران ماجد ابن السيد حمدان؛ على أمل ابنه عمه عبدالقادر.

حرص أهل الحي على مساعدة حمدان في تجهيزات حفل عقد قران ابنه، والذي سيكون في ساحة مفتوحة بالحي.

خرج السيد حمدان مبكرًا لتجهيز الذبائح، وقام بعض أهل الحي بترتيب المكان، وتعليق الإضاءات، وإحضار الكراسي؛ وترتيبها، وتجهيز الحلوى.

في هذه الأحياء البسيطة الكل يشارك ويقدم ما يستطيع، فالفرحة هي فرحة كل أهل الحي.

شاهدت عزيز وهو يقدم يد المساعدة، ويساعد في تعليق لمبات الإضاءة، وفرحت كثيرًا لذلك.

حل المساء، ولبست فستانًا قديمًا لدي لأشارك النساء فرحتهن، كان واسعًا قليلًا، فقد ضعف جسمي، وبدا عليه التعب.

تناول الجميع طعام العشاء، وبدأ الغناء في الحي والكل كان سعيدًا.

كان الجميع يشعر بالفرح رغم ما بهم من هموم الدنيا، ورغم فقرهم، وكانهم لم يعرفوا طعم الألم يومًا، حتى أن وائل ابن

الحاج نشوان؛ ذلك الشاب المثقف، والذي عاني كثيرًا في بحثه عن عمل؛ علق قائلاً وهو يخاطب بعض الذين كانوا يقربه:

انظروا إلى كل هؤلاء كيف يشعرون بالسعادة، وكأنهم لم يعانون من قبل، إنها بساطة الفقراء، لقد حرمتهم منها الحكومة بسبب أنها أشغلتهم بهمومهم، ولم تسعى لتوفير حياة كريمة لهم.

انتهى الحفل عند الثانية صباحًا، وعاد كل منا إلى بيته لينام قليلاً قبل صلاة الفجر.

مارست روتيني المعتاد في اليوم التالي إلى التاسعة مساءً، فتمت بعدها، وما هي إلا ساعات حتى سمعت أصوات نساء بيت جارنا نشوان.

فتحت عياني..

ظننت بأن الشمس قد أشرقت من كثر أضواء سيارات الشرطة التي أراها تأتي من الشارع.

قمت من مكاني محاولة الهرب، فلعلمهم يريدون أن يقبضوا على المشردين، لكنني رأيت رجال الشرطة يقتادون وائل نشوان، وأمه وأخواته يصرخن.

ياترى! مالذي أقدم عليه وائل نشوان، حتى يتم اقتياده بكل هذا
الموكب الكبير من سيارات الشرطة؟
أخذه معهم.

توجهت إلى بيت العم نشوان.

كانت ليلة عصبية، لم نستطع فيها إكمال نومنا.

رأيت الكل يبكي، والعم نشوان لا يعرف ماذا يفعل، ولا إلى أين
يذهب.

كان حالهم لا يسر أحد.

رأيت أثاث البيت وحاجياته متناثرة، وكأنهم كانوا يبحثون عن
إبرة في داخل هذا البيت.

حاولت تصبير الأم، وتصبير أخواته.

جاءت الجارات، ومكثن عند أم وائل.

مع صباح الغد توجه العم نشوان إلى مركز الشرطة، للاطمئنان
على ابنه، لكنهم أخبروه بأن ليس لديهم أي تفاصيل عنه، أو عن
سبب اعتقاله!

يا ترى.. من قبض على وائل؟

أصبحت الأسرة في حيرة من أمرها.

ألم يتكرر كل يوم، وبحث دون فائدة.

مضى شهر، وليس هنالك أي خبر عن وائل.

بعد مضي شهرين اتصل وائل على والديه، وأخبرهم أنه في السجن الكبير، بعد أن قبضت عليه الشرطة، بسبب أنه تحدث عن فقر الناس ذات ليلة؛ عندما كان في حفل عقد قران ماجد، وأن الحكومة هي من تسببت في فقرهم بإهمالها لهم.

ياترى من أوصل إلى الشرطة هذه الوشاية؟

كيف عرفوها؟

وهل كانت تلك الكلمات جريمة تستحق كل هذه العقوبة؟

مضت ثلاث سنوات، وخرج وائل من السجن.

حديثه عن الفقر دفع ثمنه ثلاث سنوات من عمره.

خرج انطوائياً، لا يتحدث كثيراً.

يسرح بفكره، ويجلس بعيداً عن الناس، وكأنه شعر بالخذلان، والانكسار.

لقد كان وائل من خيرة شباب الحي.

ثقافة، ووعي.

أدب، وأخلاق.

يساعد الجميع، وابتسامته لاتفارقه، لكنه تغير كثيرًا.

ياترى.. من أطفأ شمعة وائل؟

كان شهماً، لكنهم اليوم يصفونه بالخائن.

كان مستشعرًا بمشكلات أبناء وطنه، لكنهم الآن يصفونه بابن حرام.

هكذا قال للعم صالح ذات يوم عندما كان يجلس معه بجوار محله.

أخبره بأنهم وصفوه بابن الحرام، وأنه لايد وأن يكون تحت خدمة أسياده الذين يحكمون النظام، وأنه كفر من الشعب ليس له إلا الطاعة، وأن فقره، وفقر الناس سببه كسلهم لا أكثر.

أخبره عن حجم التعذيب الكبير الذي تعرض له، وكشف له عن جسده.

كنت قريبة منهم، استمع لحديثهم، ورأيت كمية التعذيب الذي تعرض له وائل.

لك الله يا وائل، كم عانيت أنت وكثير من الشباب؛ حتى ولو لم
يتعرضوا للسجن مثلك.

كبر عزيز، وتخرج من المدرسة الابتدائية.
وجدته خارجًا من مدرسته، حاملاً شهادته بيده.
كان فرحًا بها، ممسكها بيمناه.
يجري نحوي.
فتحت ذراعي وأغمضت عيناي.
ابتسمت له.
تجاوزني، شعرت به عندما مر بجانبني، وشعرت بسرعة الهواء
حينها.
تنفسته..
تجاوزني واحتضن سليمان.
أعرف مسبقًا أنه لن يحتضنني، لكنني تخيلت ذلك.
شعرت بحرارة جسده بين صدري.
تمنيت لو أقدم له هدية نجاحه.
ولم لا؟
لكن كيف؟

جاءت ببالي فكرة.

ذهبت إلى محل العم صالح، واشترت منه كمية لا بأس بها من الحلويات، وخرجت أوزعها على أطفال الحي الناجحين.

جاء دوره في الحصول على الحلوى.

أقتربت منه.

قلت له مبروك يا بني، وحاولت احتضانه دون بقية الأطفال وأنا أعطيه الحلوى.

ابتعد عني.. وصاح بين الأطفال وهو يضحك:

المجنونة سماح.

المشردة سماح..

اهربوا .. ستمسك بكم.

دمعت عيناى مما حدث.

اه لو تفهم يا عزيز بأن هذه المشردة سماح هي أمك.

لو عرفت أن من تصفها بالمجنونة هي من ولدتك.

تركتهم ومضيت، وهم يرموني بالحجارة، والعم صالح ينهرهم.

اقترب مني العم حسن وهو الذي يعلم بحقيقة كل شيء:

لا عليكِ يا ابنتي، سيفهم عزيز يوماً ما كل شيء.

قلت في نفسي لا أريده أن يفهم ذلك.

المهم أن يكون بخير.

في صباح يوم مشمس، وبينما كنت أواصل عملي؛ اقتربت
من سيارة كانت تقف عند الإشارة.
عرضت عليها المناديل والورود.
فتحت نافذة السيارة.. لقد كانت امرأة.
إنها سلوى.. نعم هي سلوى.
طلبت مني أن أركب معها.
سألتها عن حالها.
قالت لي بأنها قد تخرجت من الجامعة، وتعمل الآن كمعلمة في
روضة أطفال.
فرحت لها كثيرًا، لقد تعبت سلوى حتى وصلت إلى ما وصلت
إليه الآن.
إنه جدها واجتهادها، وسهرها الليلي.
سألتها عن نادية، وأخبرتني بأنها لم تعد تعرف عنها أي شيء؛
منذ أن تركت الدار.
أخبرتني بأنني قد وجدتتها مشردة في الشوارع، وبأن حالها لا
يسر أبدًا، وكيف أن التعب والمرض باديان عليها.

نظرت سلوى إلى الأرض، ثم أخبرتني عن قصة ناديّة، وكيف أنهم قد جاؤا بناديّة إلى دار الأيتام وهي رضيعة، بعد أن وجدها أحد الرجال بجوار المسجد، ولا يعرف ابنة من تكون، ومن هي والدتها، وما هي ظروف ولادتها.

ثم واصلت سلوى حديثها:

لقد قضت كل عمرها في الدار، مثلي، ومثل الكثيرات من بنات الدار.

كبرنا معاً.

كان الاهتمام بنا يعود إلى مسؤولة الدار.

في بداية مراحل نمونا؛ كانت الأستاذة ماجدة هي مديرة الدار، وكانت تحرص علينا كثيراً، وتهتم بنا، وتتابع أحوالنا.

كنا نحبها كثيراً.

كانت لنا مثل الأم، بل كنا نناديها بماما ماجدة.

مضت السنوات، وتركت الأستاذة ماجدة إدارة الدار لظروفها الخاصة.

جاءت لنا بعد ذلك الأستاذة فوزية.

كانت شغوفة بالعمل الإداري، والضوابط، وتنظيم المواعيد،
وليتها طبقتها معنا.

كنا نشعر معها بأننا موظفات لديها.

بأننا مجرد ملفات مرقمة.

كانت توافق على استخدامنا في المهرجانات، والاحتفالات،
وكنا نأخذ مقابلًا على ذلك.

لذلك ضاعت نادية، بعد أن تعرفت على من جذبها لعالمه من
خلال تلك الحفلات التي كنا نذهب إليها.

لم يأبه بها أحد.

لم تفكر الدار بمتابعتها، لأنها وبكل بساطة لن تجلب العار
سوى لنفسها فقط.

هكذا قالوا لي عندما أخبرتهم بضياع نادية.

ذهبت إليها..

نصحتها، ونصحت كذلك أخريات، منهن من أصرت على
مواصلة طريقها، ومنهن من استجابت لي وعادت.

لقد كانت نادية متفوقة جدًا في دراستها.

كانت خلوة جداً، وجميلة، والابتسامة لا تفارقها أبداً، لكنها لم تجد الاهتمام، والرعاية، أو أن يحتضنها أحد داخل الدار، فاستغلها ذناب على هيئة بشر.

أغروها، وتناقلوها فيما بينهم إلى أن أصبحت كما شاهدتها قبل فترة.

كانت نادية تبحث عن الحنان.

تبحث عن الاهتمام.

نحن يا سماح كنا نحتاج إلى الحب في الدار.

إلى من يشعرونا بالدفء.

لم نشعر بوجود الأب أو الأم في حياتنا، ولا حتى بشعور الأخوة، لذلك كان من السهل استدراجنا.

كانت نادية تبحث عن الاحتواء، لكنهم استغلوا، وضحكوا عليها.

استرخصوها لأنها يتيمة، ولأنها في نظرهم بنت حرام.

صحيح أنها تتحمل جزءاً كبيراً من الخطأ.

هي أخطأت، لكنها كانت بحاجة إلى شيء مهم.

كانوا يقولون بأننا نحتاج إلى التوجيه، لذلك كانوا يغدقون علينا بالمحاضرات، وبالتوجيهات، وكأنهم يقيمون علينا الحجة، ويظنون أنهم بذلك قد أدوا رسالتهم.

لا..

نحن لم يكن ينقصنا التوجيه فقط، بل التوجيه بحب.

لسنا مثل طالبات المدارس اللاتي يمكنهن العودة إلى أهاليهن بعد انتهاء الدرس للحصول على الحنان.

كنا نبحث عن الحنان بين كلمات النصح.

نبحث عن استشعار الخوف علينا.

افتقدنا لذلك، نعم.. افتقدنا لذلك، ولم يفهم ذلك أحد، أو أن ينتبه للأمر الذي افتقدناه.

كنت سأصبح مثلها، ولن يسأل عني أحد حينها، لكنني تتبعت واجتهدت.

أتمنى لو أنني أجدها.

ودعت سلوى بعد أن تناولنا طعام الغداء سويةً، وعدت لمسكني وأنا أفكر بنادية، وعن ما أصابها.

وعن كلام سلوى.

يا ترى أين هي الآن؟

وكيف تنام؟

نمت من ليلتي وصورة نادية لا تفارقني.

أخذت بالتفكير عن حياتي، وعن عزيز، وعن إخوتي.

نعم إخوتي.

لقد مضت سنوات، ولا أعلم عنهم أي شيء.

لم يسألوا عني، أو يبحثوا عن مكاني.

يا ترى كيف هي أحوالهم؟

ألم يفكروا بي؟

وكيف حال أبناء إخوتي؟

وحال علي ابن أخي أنور؟ فقد كان أكبرهم، وأقربهم إليّ.

ألم يسألوا عن عمتهم، أو عن خالتهم سماح؟

هل اشتاقوا إليّ؟

لقد اشتقت لهم.

هل أعود إليهم؟

لكنهم تخلوا عني.

ربما غيرتهم الأيام.

ربما ندم إخوتي، ولم يستطيعوا الوصول إليّ.

كيف سيتقبلون أمر عزيز؟

ليتني وضعت عزيز بجوار منزل أحدهم.

لكن كيف سأستعيده منهم بعد ذلك؟

هل سيصدقونني؟ أم أنهم سيقولون بأنني قد جلبت لهم العار؟

وسيصفونه بأنه ابن حرام.

وأني مثله، رغم كوني أختهم.

وقد يقتلونني.

لماذا يقتلونني دون أن يستمعوا إليّ؟

لم لا يحاولون الانتقام لي ممن فعلوا بي ذلك؟

من أولئك المجرمين؟

أم أنهم قد يتراجعون عن ذلك لو كان أولئك الجناة من أصحاب

النفوذ؟ وحاولوا إغلاق القضية؟

ماذا عن القاضي؟ هل سينصفني؟

وهل ستكون هنالك نياية تبحث عن الأدلة؟ ثم تقدمها إلى ذلك

القاضي؟

كم من فتاة ضاع حقها وأغلقت قضيتها فقط لأن من أذاها هو أعلى منها نفوذاً.

وكم من عدالة تغير مسراها حفاظاً على سمعة مجرم وأسرته.

وكم من فتاة قُتلت بعد ذلك فقط لأجل أن ينسى المجتمع قضيتها، وترتاح أسرتها مما تظنه عار يطاردها.

آه يا إخوتي كم كنت بحاجة لكم ، لكن هل سيهمكم أمري الآن؟

إنكم لم تهتموا لأمري حين بعتم المنزل، وتركتموني.

لم لا تفهموا قصتي؛ لو جئتم وأخبرتكم بها؟

لماذا دائماً ليس لي عذر، وأني يجب أن أتحمّل وحدي حوادث القدر؟

ماذا لو كنت رجلاً؟

آه يا عزيز لو تعلم بأن لديك أخوال، وأبناء أخوال.

كم تمنيت لو أخذك إليهم، وتتعرف عليهم، وتقضي عندهم كل عمرك.

كم تمنيت لو أراك بينهم.

تضحكون سوية، وتخططون لمستقبلكم.

أن يسندوك بعد موتي.
أريد أن أطمئن عليك قبل أن أموت.
ماذا لو مت دون أن يتحقق كل ذلك؟!
أخذت أفكر إلى أن غلبني النوم.

في عصر أحد أيام الإجازة الصيفية شاهدت عزيز يخرج من بيته لممارسة كرة القدم مع زملائه.

كان ملعبًا ترابيًا في طرف الحي، يلعب فيه عصر كل يوم إلى ما قبل غروب الشمس.

كنت أذهب عصرًا لأشاهده وهو يلعب معهم، وكنت أفرح بذلك.

تعرفت على صفات عزيز أكثر من خلال ممارسته للعب.

رأيت أنه وهو يضحك، ورأيت أنه وهو يمزح مع زملائه.

شاهدته كيف يبدو عصبياً عندما يفقد الكرة.

شاهدت روحه القيادية في توجيهه لزملائه في الملعب.

لم يكن أكبرهم، لكنه كان أذكاهم.

كان هو بذاته فريقي المفضل، أفرح لكل هدف يحققه، ويفز قلبي لو سقط أرضاً، أو أصابه شيء.

كم تمنيت لو أنني اشتريت لنفسي قميصاً على لون لباسه.

تمنيت لو رأني، واعتبرني جمهوره الوحيد.

تمنيت لو قدم لي التحية بعد كل هدف يسجله.

تمنيت لو أنني أستطيع غسل ملابسه بعد أن تتسخ بالتراب.
أصبحت أحضر كل يوم هذا التمرين، واستمتع به، وبمشاهدته.
كنت الوحيدة التي تحضر إلى الملعب، وكانوا يرونني كمشردة
ليس لديها ما تفعله؛ سوى أنها جاءت لقضاء بعضًا من الوقت
هنا، ولم يعلموا بأن روحي تلعب داخل هذا الملعب.
لم أكن أعلم بأن كرة القدم بهذا الجمال، إلا بعد أن رأيتك
تمارسها يا عزيز.

حرصت على أن استيقظ مبكرًا هذا الصباح.

إنه اليوم الأول لعزیز في مدرسته الجديدة، بعد انتقاله إلى المرحلة المتوسطة.

كانت مدرسته هذه أقرب بكثير من مدرسته الابتدائية.

تتبعته كعادتي إلى أن دخل مدرسته، فقد خرج هذه المرة لوحده دون أن يكون معه أحد، ثم تركته ومضيت إلى عملي.

عدت عند صلاة الظهر، وانتظرتة عند خروجه لأراه.

كان يعود مشيًا على قدميه تمامًا كذهابه صباحًا، وهذا ما أسعدني، فأنا الآن أستطيع أن أتبعه، وأن أنظر إليه مدة أطول.

تمنيت لو أحمل عنه حقيبته.

كانت ثقيلة هذا اليوم بسبب أنه تسلم كتبه الجديدة.

مر في طريقه على دكان العم صالح، واشترى من عنده عصير برتقال.

لقد كان الجو حارًا، وتمنيت لو قمت بدفع الحساب بدلًا عنه، لكنني خشيت من ردة فعله.

نعم، لقد خشيت من ولدي.

من أن يرد عليّ ردًا غير مناسب.

كم ألمني ذلك.

إنه قطعة من قلبي، ورغم ذلك أنا أخشى منه اليوم.

ماذا لو نعتني بالمشردة.

أو المجنونة.

لماذا لم يعلمك سليمان أن تقدر الضعفاء، وتشفق عليهم؟

هل أخطأت حينما وضعتك عند سليمان؟

لماذا لم أضعك عند منزل الشيخ عبدالله، إمام المسجد؟

لكن الشيخ عبدالله لديه عدة أبناء، وليس بميسور الحال مثل سليمان.

لكن سليمان رجل ذو خلق، وكذلك حميدة زوجته، وابني عزيز مهذب، وما بدر منه تجاهي هو شقاوة أطفال لا أكثر.

نعم.. نعم.. شقاوة أطفال.

المهم يا عزيز أن أراك أفضل شباب الحي، وأن تصبح رجلاً شهماً، يحب الناس، ويحبونه، ويفهم معنى الحياة.

أن تكون قدوة لغيرك.

هكذا أدعي ربي دائماً..

وهكذا أريدك أن تكون.

استيقظت مبكرًا هذا الصباح.

إنه يوم جمعة، فأنا أحاول أن أستيقظ باكراً رغم أن هذا اليوم لا عمل لدي فيه، فالיום عطلة، والناس نائمة في بيوتها، والشوارع ليست مثل كل يوم، لذلك أفضل أن أمكث في غرفتي لأرتبها، أو أن أخرج وأتجول في الحي، لكنني وقبل خروجي هذا الصباح؛ سمعت أصواتًا مرتفعة قادمة من الشارع.

خرجت فوجدت بعض أهل الحي مجتمعون أمام بيت أم أحمد.

هي امرأة وحيدة، تسكن في بيت تملكه، ويأتيها ابنها الذي يسكن خارج الحي بين فترة وأخرى.

كانت أم أحمد تشتكي من سرقة ذهبها، وأنه تحويشة عمرها.

جاء سليمان، والعم صالح، وبعض أهل الحي.

دخلوا منزلها، ولم تكن هنالك أي آثار تدل على وجود سرقة، فالنوافذ مغلقة كما هي، ولم تتعرض إلى الكسر.

أصر العم صالح على إبلاغ الشرطة، واتصل في نفس اللحظة بها.

لم يكن لدى أم أحمد أي مشتبه، فليس هنالك من تتهمه بالسرقه، لكن وقبل حضور الشرطة حدث ما لم يتوقعه أحد.

جاء أحد أطفال الحي؛ وقال بأنه شاهد عزيز، وخالد، ومنصور
يدخلون عصر أمس إلى منزل أم أحمد ثم هربوا بعد دقائق
من دخولهم.

هم صبية صغار، فكيف لهم أن يسرقوا ذهب أم أحمد، أو أن
يعلموا عن مكانه؟!

تعجب كل أهل الحي من ذلك!

ذهب سليمان وأحضر عزيز، وكذلك فعل أبو منصور، وأبو
خالد، وأخذوا بسؤالهم.

قلبي توقف!

خشيت أن يكون عزيز قد فعلها!

لا أتوقع أبدًا أن يكون قد فعل ذلك.

أنكروا أنهم قد وجدوا شيئًا بها، أو أنهم قد دخلوا إلى أي غرفة
من غرفها.

هم لم ينكروا أبدًا دخولهم إلى المنزل، قالوا بأنهم دخلوا إلى
ساحة البيت فقط من باب المغامرة، وخرجوا، لكن لا علم لهم
بأي شيء.

لم تصدق أم أحمد هذه القصة، وأصرت على أن تأخذهم الشرطة، والتي حضرت حينها.

سألهم الضابط مرة أخرى، وفي نهاية الأمر طلب من آبائهم بأن يأتوا بهم إلى قسم الشرطة، فالضابط رأف بحالهم من كونهم صبية، ولم يصر على ركوبهم في سيارات الشرطة.

ذهب الصبية مع آبائهم، وذهبت خلفهم، أتبعهم، فالقسم ليس بعيداً عن هنا، فقد كنت قلقة على ابني عزيز.

تمنيت لو دخلت معه إلى القسم، لكنني لم أستطع.

انتظرت في الخارج، وبعد ساعة خرج الصبية مع آبائهم.

عرفت من العم صالح بأنهم لم يجدوا شيئاً عند الصبية، وربما أن السارق قد دخل قبلهم أو بعدهم إلى المنزل؛ وفعل فعلته؛ وهرب.

مضى أسبوع، واكتشفوا السارق.

كان شاباً عاطلاً عن العمل، من أهل الحي، رتب لسرقته؛ واستغل دخول الصبية وخروجهم، ليثبت عليهم التهمة، ثم بعد ذلك دخل إلى المنزل، وسرق، ثم خرج مباشرة، في لمحة بصر.

اكتشفوه عندما ذهب لبييع الذهب في أحد محلات سوق الذهب الكائن في وسط العاصمة، فقد اشتبه به صاحب المحل، وطالبه بالانتظار قليلاً، وقام بإبلاغ الشرطة.

كان دافعه الفقر.

كان يرى في أم أحمد أنها امرأة كبيرة في السن، وأن ولدها لديه مال كثير، ولا بأس لو سرق ذهبها ليعيش هو وأهله.

لقد فضحتنا يا أكرم.

كان هذا ما قالته أم أكرم لولدها أكرم وهي تزوره في السجن.

سامحت أم أحمد؛ أكرم على فعلته، لكنه مكث في السجن عدة أشهر؛ ثم خرج بعدها.

لم يكن أكرم كذلك، كان شاباً مجتهداً في دراسته، مطيعاً لوالديه.

تخرج من الثانوية بتقدير عالي، لكنه لم يستطع دخول الجامعة، ولم يجد وظيفة في أي مكان، فأرهفته الالتزامات، ومصاعب الحياة.

لقد تغير أكرم كثيراً.

لم يكن هكذا، لكنها الحاجة، والظروف.

بهذه الكلمات التي قالها لي العم صالح عن أكرم؛ عرفت بأن أكرم وإن كان مخطئاً؛ فهو ضحية.

ضحية الحاجة، والواقع المؤلم الذي يعيشه.

ضحية من حرمه من إكمال دراسته، أو حتى من إيجاد وظيفة مناسبة، تعينه وأسرته على هذه الحياة.

كنت أرى أكرم قبل الحادثة؛ وهو يتجول في الحي؛ لا يجد ما يفعله.

رأيته أكثر من مرة في السوق يدخل المحلات بحثاً عن عمل ولم يجد.

رأيته عندما أنشأ لنفسه عربة لبيع البطاطس المقلي، لكن البلدية صادرتها عليه؛ بعد شهر من عمله عليها.

كان يرى أسرته تعاني، ولا تستطيع دفع إيجار المنزل، ولا حتى شراء أساسيات البيت من طعام، ومستلزمات، بل حتى أنه لم يستطع أن يحلم مثل غيره في بناء مستقبل.

ذلك المستقبل الذي رأى أنه قد فقده؛ بعد أن أخبره والد خطيبته بأنهم لن يستمروا في خطبته لابتئهم بسبب أنه لم يجد عملاً،

وأن شابًا آخرًا سيوافقون عليه، وستنتقل ابنتهم للعيش معه حيث يعمل خارج البلاد.

كان تائهاً، ومثله الكثير بالتأكد من الشباب الذين تاه مستقبلهم، فعاشوا ينتظرون المجهول.

لقد سرقوا أكرم، حين أخذوا منه أحلامه، ومستقبله، ثم سجنوه لأنه لم يجد إلا أن يسرق ليعيش.

تركت أم أكرم الحي بعد هذه الحادثة، وبعد أن خرج ابنها من السجن، ولا ندري لأي حي ذهبت، لكنها بالتأكيد لم تستطع الهروب من الواقع الذي لاحقها هي وابنها إلى مسكنهما الجديد الذي لن تستطيع هي ولا أكرم على دفع إيجاره.

في صباح أحد الأيام، وبينما كنت أمارس عملي عند الإشارة،
لمحت تجمعًا حول شيء ما.

اقتربت.

دق قلبي، وأصابني الرعب!

فتاة مقتولة، وملقاة على الأرض!

تبدو من ملابسها أنها مشردة، وكان منظرها مخيفًا.

اقتربت منها أكثر.

أعرفها.. نعم أعرفها.

إنها نادية!

نعم نادية!

ما الذي جرى لها؟!

لم أصدق عيناى بداية، ولم أتمالك مشاعري، لكنني حاولت أن
أتماسك؛ حتى لا يشعر بي أحد.

تنحيت جانبًا وبكيت، وكأنني كنت بحاجة لأن أبكي.

جاءت الشرطة، ثم سيارة نقل الموتى، وأخذوها معهم.

حرصت على تتبع أمرها.

ذهبت إلى المستشفى.

لم أستطع الحصول على تفاصيل كثيرة، سوى أنها ماتت بعد أن
نزفت كثيرًا.

ماتت قبل أن يلقوا بها في الشارع.

يا ترى.. من قتل نادية، وألقى بها هنا؟

يا حبيتي يا نادية.. يبدو أنك عانيت كثيرًا.

بكيت مرة أخرى لأجلها، وتذكرت كيف كان حالها عندما رأيتها
آخر مرة.

تذكرت كلام سلوى عنها، وعن معاناتها.

بعد أسبوع عرفت ما حدث لها من العم حسن، بعد أن قبضت
الشرطة على صديق لها؛ تمت مراقبته.

عرفت أنها قد فقدت كثيرًا من أعضائها الداخلية.

لقد شرحوها، وماتت بسبب المعاناة.

استغلتها عصابة لبيع الأعضاء؛ بعد أن علموا بحاجتها إلى
المال، فقد باعت لهم كليتها قبل ذلك، بعد أن عرض عليها

الفكرة أحد تجار المخدرات، عندما عجزت عن الدفع مقابل الحصول على ماتريد من مادة مخدرة.

نعم.. لقد أدمنت نادية.

أدمنت بعد أن تناقلها الشباب فيما بينهم.

بعد أن أصبحت تخدمهم في استراحاتهم، وتحقق لهم رغباتهم؛ مقابل أن تجد مكانًا لتنام فيه، فتعلمت منهم تعاطي تلك المواد المخدرة، وعندما ملوا منها، وأصبحت عبئًا عليهم، طردوها، فتاهت بين الشوارع تبحث عن من يعطيها مالا؛ لتحصل على ما تريد، فاستغلها تجار الأعضاء البشرية.

دفعوا لها ثمنًا بخسًا مقابل إحدى كليتيها، وفي المرة الثانية أخذوا منها ما يحتاجون من أعضاء، ثم ألقوا بها في الشارع.

ماتت بعد أن استغلها شباب الشوارع، ثم تجار المخدرات، وتجار بيع الأعضاء.

كانت وردة جميلة، ثم ذبلت.

قُيدت قضيتها ضد مجهول، وأغلق ملف القضية في أقل من أسبوع.

آه يا نادية.. لو كان معك سند في هذه الحياة.

لو كان معكِ أهل.

لو كنتِ تحملين اسماً حقيقياً.

لو كنتِ تمتلكين عزوة.

لو كنتِ كذلك؛ هل كانوا سينخلون عن البحث عن قاتلكِ؟

أم لأنكِ في نظرهم بنت حرام؟

مشردة؟ ليس من ورائكِ أي فائدة، وطالما أن هنالك مصالح مع رؤوس كبيرة تُفيد وتُسفيد.

هي لعبة كبار، وأنتِ مجرد بنت حرام في نظرهم.

آه يا نادية، قد تكونين جنيتي بحق نفسك، لكنكِ ضحية من لم يرحمكِ، ولم يعتبركِ شيء.

لقد جئتِ إلى هذه الدنيا وحيدة، داخل سلة أُلقي بها في الشارع، وغادرتيها من الشارع، لكن هذه المرة ذهبتِ إلى الله، والله أرحم بكِ من كل أحد.

وداعاً أيتها الطيبة، المغدورة من هؤلاء البشر الذين استغلوا فيكِ كل شيء، فقط لأنهم يرونكِ بنت حرام، فمن هو ابن الحرام؟

أنتِ أم هم؟

أنتِ أم أولئك الشباب؟

أم تجار المخدرات؟

أم تجار بيع الأعضاء؟

أم من يفترض أن يحميك، ويأخذ بحقك؟

من يا ترى؟

لا أظن بأن الإعلام، أو الصحافة، أو حتى كاتب؛ يستطيع أن يحدد من، لأنهم لن يخرجوا عن عادات وتقاليد مجتمع يُجمع على أنها أنتِ.

دخل علينا شهر رمضان.

في هذا الشهر يأتينا الطعام من كل مكان، فالناس هنا يتقربون إلى الله بإفطار الصائمين.

ماذا لو أن الله لم يعد الإحسان إلى الضعفاء عملاً صالحاً؛ هل سيرحمنا الناس؟

هل سيقدمون لنا الطعام؟

هل سيشفقون علينا؟

هل الناس بحاجة إلى جزاء إلهي من أجل أن يعملوا الخير فيما بينهم؟

هل الأصل في الإنسان الخير أم الشر؟

هل الحب أم الكره؟

كنت أخرج للبيع عند الإشارات مساءً، بعد الإفطار، لأنني لم أكن أفضل الخروج ظهرًا؛ بسبب الصيام، لكن البيع كان ضعيفًا جدًا في المساء، بسبب أن الناس في هذا الوقت قد يذهبون إلى التسوق، وهناك يجدون كل شيء، وهذا ما أثر على دخلنا مما نبيعه في هذا الشهر، لكن حصولنا على طعام الإفطار والسحور؛ ساهم في تعويض ضعف دخل البيع.

كنت أشاهد عزيز وهو يخرج لشراء بعض الأطعمة عصرًا.
كنت أتبعه دائمًا، لأتعرّف على ما يحب من طعام.
عرفت حبه الكبير للبسبوسة، فهو يفضل أن يشتريها كل يوم
من حلواني شهير خارج الحي.
قررت تذوقها، وأشار كـه طعمها.
أحببتها لأجله، لكنها كانت غالية الثمن.
قررت أن أشتري قطعة من مكسب بيع يومين.
اشتريتها، وتذوقتها.
كانت قطعة صغيرة لكنها أشبعنتني، ولولا خوفي من فسادها
لاحتفظت بها.
كنت أصلي في نفس المسجد الذي يصلي فيه التراويح، حتى
نؤمن سويًا على دعاء الإمام.
كنت أفكر في صلاتي والإمام يدعو ويقول في ركعة الوتر:
اللهم اغفر لأمهاتنا، وهو يردد: آمين.
كنت أبكى وأفكر: هل سيغفر الله لي بتأمينه عزيز؟
هل عزيز يقصدني هنا؟ أم يقصد حميدة زوجة سليمان؟

كنت أراه في آخر أيام رمضان وهو ينزل من سيارة السيد
سليمان؛ ويحمل أكياس العيد.

ملابسه وحاجياته.

كنت أنتظر كل عيد بفارغ الصبر لأراه بملابسه الجديدة.

كان جميلاً وهو ذاهب إلى صلاة العيد مع عائلة السيد سليمان،
وتمنيت لو أمسكت بيده، وذهبتا سوياً إلى الصلاة.

أن أعايدته بعيدية العيد، وأخبره بأنه عيدي، وفرحتي.

كنت أبتسم فخورة به، وأبكي حزناً على فقدان لحظات كان
يفترض أن تجمعنا معاً.

ما أبكاني كذلك هو حال عائلة العم سليم.

رأيتته عند باب بيته حزياً، ودموعه على خديه لأن أبناءه لم
يخرجوا إلى صلاة العيد هذا الصباح.

طلب منهم عدم الخروج، وأن يبقوا في المنزل.

أن يمكنوا في أماكنهم، وأغلق عليهم الباب.

ظنوا أن أباهم كان قاسياً عليهم لأنه حرمهم لذة العيد.

كانوا صغاراً.

لم يفهموا بأن أباهم لا يملك ثمن قطعة قماش لأحدهم، وأنه لم يُخرج زكاة الفطر، لأنه بالكاد يستطيع أن يوفر لهم بقايا طعام ليبقوا على قيد الحياة، ولأن الناس قد توقفوا عن عمل الخير، وتفقدهم البعض بغروب شمس آخر يوم من رمضان.

كان آخر ما حصل عليه هو كيس من الأرز من جاره، أعطاه إلى العم سليم من أجل أن لا يدخل في عقوبة تأخير الزكاة عن وقتها.

لن يفهموا بأن والدهم تم طرده من عمله قبل شهر رمضان؛ بسبب أن راتبه الذي لم يتعدى ألف ومئة ورقة سيؤثر على ميزانية الشركة التي تحاول تقليص نفقاتها، وأن من قرر ذلك هو مدير يتجاوز راتبه ثلاثون ألف ورقة.

تألمت لحال العم سليم.

لم يكن العم سليم وحدة من حرم أطفاله من الخروج إلى صلاة العيد، بالتأكيد هنالك أسر أخرى حُرمت فرحة العيد.

ذهبت إلى مكان نومي، في غرفتي الخشبية الصغيرة، وأخرجت من مكاني السري بعض المال الذي كنت أدخره

لعزيز، وذهبت لإعطائه للعم سليم من أجل أن يلحق ببعض
المحلات لشراء ما ينقص أطفاله.

أعطيته المال بنية الصدقة عني، وعن عزيز.

ياه ياعزيز.. تذكرتك في صدقتي.

بل صدقتك أنت، فالمال أدخرته لأجلك، وليس لي فيه أي
نصيب.

فرح العم سليم كثيرًا.

فرح ودمعت عيناه.

لا أعلم هل دمعت عيناه فرحًا بالمال؟ أم لأنه ندم حينها؛ حينما
وصفني صباح ذات يوم بأنني ابنة حرام، ومشردة في
الشوارع؛ حين سكبت بعض الماء بالقرب من منزله دون قصد.

قرأت في عينيه؛ وكأنه يقول بأنني لست ابنة حرام، فليس ذنبي
لو كنتُ كذلك، لكن أولاد الحرام هم أولئك الذين حرموه من أن
يعيش حياة كريمة.

رأيت أطفاله عصر يوم العيد؛ وهم يلعبون بسعادة مع أبناء
الحي، بملابسهم الجديدة.

كم من بيوت حُرمت فرحة العيد.

كم من بيوت نامت جائعة، حزينة، لأنها حُرمت من ممارسة حقها بالعيش الكريم.

لأن رب أسرتها لم يجد وظيفة، أو تم فصله منها.

أو حرمه النظام من دعم الفقراء لأن أوراقه لم تُكتمل، أو أن هناك من رأى بأن كماليات أخرى، ومشروعات ثانوية؛ هي أولى من هذا الإنسان، وهؤلاء الفقراء؛ ليُصرف عليها المال.

كبر عزيز، وأصبح في المرحلة الثانوية.
خرج بلباسه المدرسي الأنيق من بيت سليمان، وعيناوي
ترافقانه.
شاب أنيق يزداد جمالاً.
آه يا عزيز..
كم تمنيت لو أجتمع بك، وأجمعك بأخوالك، لكنني لا أستطيع أن
أجلس معك، أو حتى معهم.
وحيدة في هذه الحياة بلا سند.
كم تمنيت أن تكون سندي يا بني.
لازلت متمسكة بالأمل رغم كل شيء، وستأتي اللحظة التي
تعود فيها إليّ.
إنه حقي في هذه الحياة، وأمنيتي قبل أن أموت.
لقد كبرت أمك بسببك يا عزيز أعوامًا عديدة، فوق عمرها
الحقيقي.
مازلت شابة في نهاية الثلاثينات من عمري، لكنني أملك تجربة
ابنة الستين عامًا.

تقع مدرسة عزيز بجانب مدرسته المتوسطة، لذلك أصبح ذهابه وإيابه مشيًّا على قدميه.

استمررت بمرافقته صباحًا، وظهرًا.

عيناى وقلبي معه، لكن ماذا عنه؟

لم لم يشعر بي؟

كنت أتألم لذلك.

لكن كيف سيشعر بي؟ وسليمان وحميدة يحيطان به، ويرانه ابنهما الوحيد؟

ألم يلاحظ قربي منه؟

إنه يراني كل يوم في الحي.

يرى عيناى لا تغادره.

لقد كبرت يا عزيز؛ وكبر عقلك.

أصبحت النساء يتغطين منك، إلا أنا.

هل سألت نفسك لماذا؟!!

هل تظن لأنني مشردة؟

لا.. لأنني أمك يا عزيز.

لا أظن بأنك ستفهم ذلك الآن، ولا أعلم متى ستفهم ذلك.

في صباح أحد الأيام لمحتها.
كنت أبيع المناديل عند الإشارة.
كانت بثياب قديمة.
كبرت عن عمرها الحقيقي عشرون عامًا.
تغيرت ملامحها كثيرًا.
نظرت لها وأنا لا أصدق ما رأيت.
هل من الممكن أن تكون هي؟
مستحيل!
نعم، إنها سلمى!
نعم هي سلمى!
لكنها توفيت!
ربما شبيبتها.
لا، بل هي.. سلمى.
صديقة عمري.. أعرفها جيدًا.
ذهبت مباشرة نحوها.

عرفتني..

سلمى.

ألم تموتي؟!

قلت لها ذلك وأنا احتضنها.

بكت، وبكيت معها.

أخذتها إلى حديقة عامة.

طلبت منها أن تجلس حتى أعود.

كان معي عشرون ورقة.

ذهبت واشتريت لها وجبة وقدمتها لها.

قصت عليّ كل شيء، ودموعها على خديها.

قصت عليّ، وأنا لا أكاد أصدق:

عندما كنت مسافرة، كنتُ أبيع كعادتي عند الإشارة.

كان موقعًا جديدًا أبيع فيه، اخترته من أجل أن أهرب من

مطاردة موظفي البلدية لي.

بينما كنت واقفة بانتظار إغلاق الإشارة؛ تم القبض عليّ.

ظنت بأن موظفي البلدية، أو مكافحة التسول هم من قبضوا عليّ.

أركبوني سيارة..

لم أكن لوحدي، كان عددهم ثلاثة رجال.

أغضوا عياني بقطعة قماش، وسارت بي السيارة مسافة نصف ساعة، ثم أدخلوني مبنى، ووضعوني في غرفة.

مكثت ساعة في الغرفة، وشعرت ببرودة المكان.

بعد ساعة جاء من يكشف عن عياني، شخص لا أعرفه، يلبس قميصاً أبيضاً، وبنطالاً أسود.

وجدت نفسي في غرفة جميلة، بها سرير وكل ما أحتاج إليه، حتى الملابس، وجيء لي بالطعام.

مكثت في الغرفة أكل وأشرب، واستحمت وغيّرت ملابسني.

كانت كل الملابس هنا أنيقة، وجميلة.

تمنيت حينها لو كنت معي يا سماح، لكن جهاز هاتفي قد أخذه مني، ولم أستطع الاتصال بك، أو إخبارك عن أحوالي، وأين أكون.

عشت أسبوعًا مثل الأميرات، آكل، وأشرب، وألبس، إلى أن جاء لي أحدهم.

سألته أين أنا! فأجابني بأن كل شيء في حياتي سيتغير، وأني أصبحت أعمل في هذا المكان.

سألته عن طبيعة وظيفتي، فأخبروني بأن وظيفتي ستكون في هذا الفندق؛ كمشرفة على غرف النزلاء، أقدم التسهيلات لمرتابديه، وأخدمهم، ولا أرفض لهم طلبًا. وافقت، وبدأت عملي.

طلبت هاتفًا مرة أخرى لأخبرك عن وظيفتي، لكنهم قالوا لي بأنهم سيحضروا لي هاتفًا جديدًا نهاية الشهر. مر أسبوع وجاء نزيل مهم.

أمروني بأن أكون بقربه، وطلبوا مني ارتداء ملابس معينة. رفضت لبسها، لكنهم أجبروني عليها، ودخلت لغرفة النزيل من أجل أن أسأله إن كان يحتاج إلى شيء. ما إن رأي النزيل حتى حاول أن يتحرش بي. دفعته وهربت، وأخبرت المشرف عنه.

أمرني بالعودة له، وتحقيق رغبته.

رفضت، صفعني المشرف، وحاول أن يعيدني له، حاولت الهروب، فضربوني، وأدخلوا له فتاة أخرى بدلاً عني، أما أنا فأغمضوا عيني، وذهبوا بي إلى مكان آخر؛ يبعد ساعتين عن هذا الفندق.

ضربوني هناك.

ذكروا لي بأنني لا بد وأن أطيعهم من أجل مصلحة البلد، فهذا الفندق يأتيه نزلاء أجانب من كل مكان، ولا بد لي من أن أتقرب من أولئك النزلاء حتى أستطيع أن أحصل منهم على بعض المعلومات في لحظة نشوة، وإذا لم أحصل منهم على أي معلومات فسيقومون بابتزازهم بمقاطع سيتم تسجيلها من الكاميرات السرية في غرفهم معي، والتي صورتني أنا أيضاً عندما كنت وحيدة في غرفتي التي أدخلوني فيها أول مرة.

رفضت..

عذبوني.

اتهموني بالخيانة، وبعثوني بأنني ابنة حرام، خادمة، لا يحق لها أن ترفض أي طلب.

سجنوني، وأخبروني بأن خروجي من هذا السجن سيكون إلى المقبرة.

مكثت خمسة عشر سنة، كنت خلالها أدوق أصناف العذاب، وأهدد بالاعتصاب.

اغتصب أحدهم إحدى السجنيات.

ادخلوها إلى غرفة، وفعل ذلك المحقق معها.

وكذلك فعلوا مع أخرى، والتي ولدت داخل السجن، ثم حرموها من طفلها.

علقوني لأيام، وحرموني من الطعام.

جاؤوا لي مرة بضابط اسمه صفوان، هددني أمام المحقق بالاعتصاب، بل أخذني إلى غرفة بجانبها، ولم يفعل معي أي شيء.

كان رحيماً، فقط تظاهر باعتصابي؛ حتى يحميني.

كانوا يكررون ذلك مع الكثير من السجنيات، بل يتعدى الأمر إلى أنهم قد يخرجون بعضهن من أجل أن تقيم علاقة مع أي أحد، ثم يعيدونها، وكأنهن جوارى يتاجروا بهن.

مرضت آخر مرة فأدخلوني المستشفى للعلاج.

مكثت في المستشفى أسبوعًا، حتى جاءني الضابط صفوان، وذكر لي بأنه سيخبرهم بوفاتي، وسيعد كل الأوراق لذلك حتى أستطيع الهرب.

أخبرني بأنه سيقوم بتجهيز كل شيء، وأن هذه مهمته، فقط طلب مني ترك العاصمة، وعدم العودة إليها بأي حال كان، والعيش في مكان بعيد؛ تحت أي اسم.

أخبرني بأن أمري لا يهم أحدًا، لأنني لقيطة، وخدامة، وبننت حرام في نظرهم، لذلك لن يأبه أحد لوفاتي.

كان ضابطًا شهيمًا، ساعد الكثيرات منا على الهروب دون أي مقابل.

هربت من المستشفى؛ وذهبت إلى المدينة الشمالية.

حاولت هناك بأن أتواصل معك، لكنني لم أستطع، وعندما ضاق بي الحال عدت خفية إلى هنا للبحث عنك.

كنت يا سماح هدفًا لهم، خاصة بعد أن تم اغتصابك من أولئك الشباب الجبناء، لكن الضابط محمود رفض ذلك.

رفض بأن يَمَسِّكَ شيء، ولا أعلم لِمَ قبل أن يتم استخدامي،
ولم يقبل بأن يتم أنتِ استخدامكِ أيضاً!

نعم يا سماح ربما هم يعرفوا أسرتك جيداً، وبالذات الضابط
محمود يعرف أسرتك، ويعرف أشياءً كثيرة عنكِ لم أستطع
معرفتها، فقد استمعت مرة لهم وهم يتحدثون عنكِ، لكنهم
أبعدوني قبل إكمال حديثهم.

هل تعرفين حقيقة العم حسن؟

لقد رأيته هناك.

نعم.. هو الضابط محمود.

حضر مرتين إلى التحقيق، ولم يتكلم، رأيته من تحت غطاء
القماش الذي غطوا به عيناى.

إنه يأتي إلى الحي هنا لمهمة، وليس لأنه مشرد، لذلك احذري
منه جيداً.

أنا لا أريد شيئاً من هذه الدنيا؛ سوى أن أعيش في أمان، فقد
تعبت كثيراً في حياتي؛ كما تعلمين.

تعلمين كذلك كيف عايشتُ معاناة والدائى، خاصةً أمي بعد وفاة
أبى.

كان الناس ينظرون إلينا بعنصرية مقبته؛ من كوننا من ذوي
البشرة السمراء.

يصفوننا بالخدم.

بحث والدي عن عمل، ولم يجد، فلا أحد يريد أن يعمل في
دكانه.

كان يبحث عن العلب المعدنية بين النفايات من أجل بيعها
وتوفير الطعام لي، ولأخي الذي كان يكبرني بسنة، لكنه مات
بسبب المرض.

لم يجد أبي ثمنًا لعلاج، ولم يقبل أحد أن يدينه، رغم أنه كان
فقط بحاجة إلى مائة وسبعين ورقة.

مات أبي جائعًا، وواجهت الحياة بعد ذلك أنا وأمي؛ إلى أن
توفاه الله، ثم وجدت نفسي بعد ذلك في الشارع وحدي، ليس
معي أحد.

تعرضت للكثير من الصعاب، وللمعاناة.

كان الناس يرون بأني رخيصة، حاولوا استغلالي وأذيتي،
لكنني واجهت كل شيء.

لقد عانينا كثيرًا يا سماح، وأريد أن أرتاح.

نعم أريد أن أرتاح، فقد أصبحت أخشى على نفسي من هذا العالم المتوحش، والذي لا أجد من يحميني فيه.

كنت أخشى من المجرمين، وكنت أخشى أن يصيبني ما أصاب وجدان.

هل تعرفين وجدان؟

ابنة فاطمة التي تسكن معنا في الحي، والتي تم اختطافها قبل سفرك إلى المدينة الشمالية.

هل تعرفين ما جرى لها بعد ذلك؟

عندما بلغت الثانية عشر من عمرها تم اختطافها من أمام مدرستها.

بحثوا عنها في كل مكان؛ ولم يحدوها.

حتى الشرطة لم تعثر عليها.

بعد سنوات وجدوها في إحدى الفيديوهات، في دولة أوروبية. وجدوها وعلى ملامحها لمسة حزن، وهي بين أحضان رجل كبير في السن، ربما كان مسؤولاً هناك، لكنهم لم يعرفوا من هو، لأن ملامحه لم تظهر جيداً.

ماتت أمها بعد أن شاهدت ابنتها في ذلك الفيديو، وأحست بمعاناتها.

حاولوا استعادتها، وسافر عمها للبحث عنها في أكثر من بلد لكن دون فائدة.

بعد سنة؛ وجدوا جثتها هناك..

لقد تم قتلها، وهي مازالت صغيرة، ولم يعلموا عن تفاصيل ما أصابها، ربما تكون قد قاومتهم، أو حاولت الهرب؛ فقتلوا، بعد أن أخذوا بعض أعضائها.

كنت أخشى وأنا صغيرة من أن اختطف في يوم ما مثلها؛ من تلك العصابات التي تخطف القُصّر، والبالغات، لتبيعهم بعد ذلك، أو تقدمهم كقربان.

كنت أخشى ذلك؛ لكن كان سيناريو آخر ينتظرني، لا يقل بشاعة عن ما أصابها.

ضممتها، وأخبرتها بأن ما جرى لها ولأسرتها لا يعني بأي حال بأن كل الناس كذلك.

بقدر سعادتي بعودة سلمى، وبقدر قلقي على حالها، وما وصلت إليه؛ بقدر ما أنني صدمت من العم حسن.

أو الضابط محمود.

ذلك الذي تنكر لسنوات بلباس المشردين.

ماذا كانوا يريدون بالضبط؟

هل كانوا يريدون أن يبحثوا عن احتياجات ذلك الحي الشعبي البسيط؟ أم كانوا يريدون أن يطمئنوا من أن الفقر مازال مستتبًا في ذلك الحي؟

ماذا يريدون من البسطاء؟

أين هم عن مآسي المشردين؟

عن شباب الحي الذين لم يستطيعوا الحصول على وظيفة، وبناء أسرة؟

لماذا لم ينتبهوا للحاجة حليلة التي تبيع الخبز على بسطتها في السوق، لتؤمن قيمة الدواء لابنها المعاق؛ الذي تأتي به معها إلى البسطة كل يوم؛ حتى لا يموت وحيدًا في المنزل؟

أين هم عن فقر العم سليم؟

عن عجزه من جلب ملابس العيد لأبنائه؟ أم أنهم تفرغوا لمتابعة وائل نشوان؟ وماذا يقول؟

أين هم ممن اغتصبوني، ورموني؟

أين هم ممن قتل نادية؟

ومن تلك العصابات التي اختطفت وجدان؟ تلك الفتاة القاصرة؟

أين هم من المتمكنين، وأصحاب النفوذ الذين استغلوا حاجات
الناس؟

إنهم بحرصهم على بقائهم؛ وبقاء مصالحهم؛ أصبحوا فاسدين؛
يدعمون المتمكنين، ويصنعون الفقراء، والضعفاء، لتتنشأ
الصراعات في البيوت، وداخل المجتمع؛ من أجل البقاء،
وتكون الجرائم، ثم يقولون من أين جاء الضحايا؟ وأبناء
الحرام؟

أخبرت سلمى عن عزيز، وأنه قد كبر.

أخذتها إلى مدرسته لتراه.

كنت فخورة وأنا أشير إليه، وأطلب منها أن ترى ملامحه من بعيد.

قالت بأنه يشبهني، وفرحت كثيرًا أنها قالت لي ذلك.

مكثنا سويةً لمدة يومين.

كنت أذهب إليها كل يوم، فقد استأجرت لها غرفة في فندق بسيط.

بعد أسبوع ودعت سلمى، وأرسلتها إلى العمة سالحة؛ من أجل أن تعمل لديها.

أخبرتها بأن تسلم عليها، وتطمئنها عن أحوالي، وبأنني سأزورها.

ودعتها ولا أعلم هل سأراها مرة ثانية، أم لا؟

لا أدري لم شعرت بأنه الوداع الأخير..

بكينا..

تمنيت لها السعادة، واتفقنا على أن نلتقي.

اتصلت عليّ سلمى بعد وصولها، وعرفت بأن العمّة صالحة
رحبت بها، وأسكنتها في نفس الغرفة التي سكنتُ فيها عندما
كنت هناك، وأنها قد بدأت عملها في المزرعة.

كنت سعيدة بأنني استطعت أن أساعد سلمى لتحيا من جديد،
وتعيش حياة مستقرة عند العمّة صالحة.

أخذت بعد ذلك أفكر.

أفكر في العم حسن.

ذلك الرجل الطيب الذي ساعدني كثيرًا.

هل من الممكن أن يعيش بيننا من يحتونا بطبيعتهم، ثم نكتشف
أنهم غير ذلك؟

هل من الممكن أن يتقمص أحدهم شخصية غير شخصيته
لسنوات؟

كم من ضحايا طبيئته من سكان هذا الحي البسيط؟

هذا الحي الذي كان ينتظر أهله منه أن يكون شاهدًا لهم،
ولمآسيهم.

ألم يتأثر بحال الناس الذين عاش قصصهم؟

كيف كان يواسيهم، وهو من تسبب ببيكائهم.

أصبحت حذرة إلى درجة كبيرة من العم حسن، وقد لاحظ عليّ ذلك.

لم أكن أخشى ملاحظاته، فما أفعله أو من به.

الإيمان بالفعل هو وقود الثقة.

لا أدري؛ لم أصبحنا نخشى من ردة فعل من حولنا؟

أو نخشى أن يكونوا جواسيس علينا؟

الحذر مطلوب، لكن عدم العمل، والاستسلام لأي أمر بسبب الخوف هو تقييد لك.

وقتل لحريتك.

هو إطفاء لكل بصيص أمل من الممكن أن يكون شعلة تضيء لنا طريق مستقبلنا.

وأخيرًا.. تخرج عزيز من الثانوية.

أنهى دراسته الأساسية بعد سنوات من البذل والجهد، وكنت معه؛ أراقبه من بعيد.

كم تمنيت لو شاركته فرحة التخرج، فقد عمل له سليمان وحميدة حفلة داخل منزلهم، دعوا فيه الأقارب، وأهداه سليمان في تلك الحفلة سيارة جديدة.

سيارة رمادية اللون، صغيرة، جميلة.

لا أفهم في أنواع السيارات كثيرًا، فقط كنت أشاهد تلك السيارات عند إشارات المرور، وفي الحي، وأفرق بينها من خلال ألوانها، أو بعض أسمائها.

رأيته وهو يقودها، وتمنيت لو كنت راكبة معه، ونتجول سويةً في شوارع المدينة، ثم نتناول طعامنا في أحد المطاعم على الطريق.

أن نتناقش أنا وهو في اختيار تخصصه الجامعي.

طبيب أو مهندس، أو حتى محامي لا يهم، المهم أن أكون بجانبه.

أن أرتب له كتبه الجامعية.

أن أصنع له فطوره قبل خروجه.

أن يخبرني عن أحلامه وطموحاته.

أن أنتظر تخرجه لأخطب له الفتاة التي يتمناها.

هي أحلام بسيطة لكل أم، لكنها مستحيلة عليّ أن تتحقق، ورغم ذلك يبقى الأمل.

ذلك الأمل الذي أتفسه كل يوم، وأنتظره بصبر.

ذلك الأمل الذي سأعيش من أجله بقية عمري.

ليس لدي أي حلم سوى أن يجمعني الله بعزيز.

أن استشعر قربه.

أن أحتضنه.

لا أعرف كم سأعيش، لكنني أتمنى أن أكون بجانبه بقية عمري.

كنت أتربح عودته حين يخرج بسيارته، فأنا أخشى عليه من الطريق، فهناك من يقود سيارته بسرعة، وهناك من لا يلتزم بقواعد الطريق، وكم أتمنى أن يكون عزيز من أولئك الذين يحرصون عند قيادتهم.

كنت أخشى عليه من نسمة هواء، فهو فلذة كبدي، وروحي التي
ليس لي سواها.

كنت أشعر بالراحة حين يعود إلى البيت، وكان القلق يصيبني
لو ركب معه أحد من أصدقائه، فأنا أخشى عليه من الانشغال
بالحديث معهم.

كنت آتي لأتحسس سيارته بعد أن يوقفها، وأنتظرها حتى تبرد،
فقد سمعت بأن استمرار الحرارة بها قد يشكل خطرًا عليها.
كنت أتفقد عجلاتها، فمن الممكن أن يكون قد أصابها شيء ولم
ينتبه.

كنت أحياناً في منتصف الليل أقوم بغسلها له، وحين يأتي لها
في الصباح يجدها نظيفة.

كان يظن بأن من فعل ذلك هو عامل نظافة السيارات، فقد كان
يعطيه كل شهر مبلغاً من المال من أجل تلك المهمة.

بدأت تظهر عليّ بوادر مرض لا أعرف ما هو.
حاولت أن أشرب عصير الليمون، أو أن أتناول المسكن.
كل الفقراء في هذا العالم يبادرون إلى عصير الليمون عندما
يشعرون بالمرض.
هو علاجهم عند مرضهم، وهو لتعديل مزاج الأغنياء عند
غضبهم.

لا أدري لم يغضب الأغنياء؟

كنت واحدة منهم، لكنني لا أعرف سر ذلك.

أحلامهم خلفهم، قد حققوها.

ربما لأن سقف طموحاتهم أكبر، لكن ليس في ذلك مشكلة، بل
من الرائع أن لا يكون هنالك حد للأحلام، لكن ربما لأن تلك
الطموحات تكبر أحياناً لأجل التفاخر؛ لا لأجل السمو بالنفس.

مع ظهور بوادر المرض، أصبحت طريحة الفراش، الذي أنام
عليه.

آه.. كم تمنيت لو يأتيني عزيز بسيارته، وينقلني إلى المستشفى
للعلاج.

بدأت أشعر بالآلام في كل جسمي، ربما هي حمى عابرة،
وستنتهي خلال يومين.

مر أسبوع وأنا لا أستطيع الحركة.

كان العم حسن يأتيني بالطعام، وكنت أشكره، وأخبره بعدم
حاجتي للأكل.

لقد تعبت أقدامي، ولم تعد تستطيع حملي.

أخبرت سلمى بمرضي، وأرادت أن تأتي إلى هنا لتراني، لكنني
رفضت حضورها، فلا أريد أن يعرف العم حسن عنها أي
شيء.

كنت أتمنى لو أستطيع أن أصارح عزيز بكل شيء، فأنا اليوم
أصبحت أخشى الموت.

لم يكن الموت بالنسبة لي هاجساً، لكنني أحببت الحياة من أجل
عزيز فقط، فلا شيء يستحق حياتي سواه.

كنت في صراع داخلي.

هل أخبره بكل شيء، أم أتركه لحياته؟

لكنني أمه.

أخذت أبكي، وأنا أفكر.

أخذت ألوم نفسي كثيرًا.

ماذا لو واصلت حياتي عند العمة سالحة؛ ولم أتركها،
وأخبرتها بحقيقة أمري، على الأقل سيمكث ابني معي.

لكنها ستتهمني حينها بأنني عاهرة، وبنت حرام، وستطردي،
ولن تقبل بمكوثي لحظة عندها.

لن تصدق قصتي.

لن تصدق أي شيء.

ماذا لو مكثت في مدينتي بين إخوتي ولم أتركهم؟

لكنهم تخلوا عني، ولم أكن بالنسبة لهم إلا أختهم من والدهم
الذي تزوجته أمها من أجل الميراث كما يظنون.

فهمت معنى أن يموت الإنسان وحيدًا.

بلا سند.

ها أنا ذا أصارع المرض وحيدة في هذه الحياة.

جلب لي العم حسن بعض الأدوية، فقد قال بأنه ذهب إلى
المستشفى، وشرح للطبيب عن حالتي؛ وأعطاهم له.

كانت أيام عصيبة، وأكثر ما أَلمني فيها ليس المرض!
بل هو عدم رؤيتي لعزير عدة أيام.
حاولت أن أستعيد قوتي وأخرج لأراه، لكن دون فائدة.
قاومت مرة، وخرجت.
مشيت بخطوات ثقيلة باتجاه بيت سليمان، وانتظرتَه رغم
حرارة جسمي.
رأيتَه عائداً مع حميدة، ومعهم أكياس تسوق جلبوها معهم.
آه يا عزير لو تشعر بأمك.
ابتسمت عندما رأيتَه بخير، وشعرت بأن رُوحِي عادت إليّ.
دخل منزله وأغلق الباب، وعدت إلى غرفتي.

بعد شهر بدأت حالتي بالتحسن.

ذهبت إلى المسجد واستحمت، وبدلت ملابسي.

عدت، وكنت عازمة على ما قررت.

لقد كنت أفكر في ذلك طوال فترة مرضي، وأشعر بأن التحسن الذي طرأ عليّ لا يعني زهاب المرض، لذلك لا بد لي من أن أتحرك.

نعم، سأنتظر عزيز قبل مدخل الحي؛ عند عودته من الجامعة بسيارته، وأوقفه؛ لأخبره بكل شيء.

سيسمعني.. نعم.. وسيقدر كل شيء فعلته من أجله.

أوقفته.. تقدمت نحوه، وتحدثت إليه:

يا عزيز أنا أمك..

نعم.

أنا من ولدتك، وأرضعتك، لكنني لم أستطع استخراج أوراق رسمية لك، ولا حتى حمايتك من البرد، ومن تقلبات الأيام.

أنا أمك، وليس لك حتى أب يا بني.

السيد سليمان وزوجته حميدة هم من ربوك، وهم من وجدوك
عند باب منزلهم بعد أن وَضَعْتُكَ هناك؛ لتحي حياة كريمة، لا
الحياة التي أعيشها أنا.

صدقني يا بني.

صدق إحساسك مني.

اعمل فحوصات أو أي شيء.

المهم أن تعرف بأنني أمك.

أنا بحاجتك، لم أعد أقوى على هذه الحياة.

أريدك بجانبني.

لا بأس بأن تظل مع سليمان وحميدة، لكن لا تحرمني منك،
ومن قريك.

أخذت أبكي.

نظر إلي وقال:

يبدو أنك كبرتِ يا امرأة، وصدق والداي عندما حذّراني منك
بعد أن لاحظا مراقبتك لي.

إحساننا لك هنا في الحي هو من باب الشفقة ليس أكثر، ولا يعني ذلك أن تتجاوزي حدودك.

من الممكن أن أكون أي شيء، إلا أن أكون ابن حرام مثلك.

أغلق نافذة سيارته، ومضى.

نظرت إلى سيارته وهي تمضي.

وقفت صامتة.

ليتني لم أبادره.

ليتني بقيت أتأمله، وأعيش على أمل اللقاء به.

يكفيني أمل انتظاره، ولا نهاية ردة فعله.

هل أخطأت عندما أخبرته؟

هل استعجلت؟

ألم يحن الوقت بعد؟

هل صحيح أن سليمان وحميدة يحذرانه مني؟

هل تساورهم الشكوك من أنني أمه، ويخشيان أن أخذه منهما؟

لا أعتقد..

هل صدقهما؟

لكني أمه.

وهو ابني.

هو قطعة مني.

ياارب.

ماذا أفعل؟

عدت إلى غرفتي أفكر.

كانت ليلة صعبة، ومؤلمة بالنسبة لي.

اتصلت على سلمى وأخبرتها بالأمر لتساعدني.

أخذت أبكي.

لقد فقدت ابني..

هل أدخلته في دوامة؟

آه يا عزيز.. ماذا أفعل لأجلك..

لا أريد لك أن تعاني.

أنا الماضي، لكن أنت المستقبل.

زاد بكائي..

توقفت عن البكاء..

قررت أن أحدثه مرة أخرى، لكن ليس هنا في الحي.

انتظرتَه اليوم التالي عند سيارته.

كانت متوقفة في مواقف الجامعة التي يدرس بها.

نزل من مبنى كليته بعد أن انتهى من محاضراته.

رآني وأمرني بالابتعاد عن سيارته.

نظرت إليه وقلت:

اعتذر يا عزيز عن ما بدر مني.

كنت مريضة، ولا أعي ما أقول.

كان كلامي كله بالأمس غير صحيح، كنت فقط اختلق كلامًا

لأنال عطفك لا أكثر.

سامحني.

لم ينظر إليّ.

فقط قال لي وهو يحاول فتح باب سيارته:

كنت أعلم بأنك تخلقين القصص لتكسبي عطفنا، وأن النوم بالشارع قد أصابك بالجنون، ولأنه ليس لي أم غير أمي حميدة، وأنه من المستحيل أن تكون أمي في يوم من الأيام غجرية، أو بنت حرام، أو أن أكون أنا ابن حرام.

ركب سيارته، ورمى لي عملة معدنية كانت داخل السيارة، ومضى.

سقطت العملة على الأرض.

نظرت إليها، ثم نظرت إلى سيارته وهي تمضي ودموعي على خدي.

شعرت بأن هذا الحوار هو نهاية علاقتي بعزير.

أخذت ألوم نفسي.

ولم لا ألومها وأنا من تجني دائمًا على نفسها.

هل تسرعت بإخباره؟

وهل تسرعت بالاعتذار منه بعد ذلك؟

لماذا اعتذرت منه؟

هل خوفي عليه من أن يتعبه التفكير في ذلك هو السبب؟

هل كان من الأفضل أن أتركه ليبحث في الأمر؟ ربما سيكتشف كل شيء بنفسه.

هل أخطأت عندما وضعته عند سليمان؟

صحيح أنني كنت أفكر برفاهيته، لكن سليمان لم يفكر بتهديبه بالقدر الكافي، لقد بالغ بتدليله.

هل أخطأت بحق عزيز لأنني لم أضعه عند رجل لديه أبناء؟

أن يكون لدى أب عالم بأصول التربية؟

ربما ذهب به إلى دار أيتام بدل تربيته.

أه يا عزيز، تمنيت لو لم تقل لي هذا الكلام.

تمنيت لو أنك اكتفيت بالدعاء لي بالشفاء؛ ثم مضيت.

شعرت بالتعب وأنا أفكر.

نظرت إلى العملة المعدنية التي رماها لي.

أخذتها من الأرض.

أخذتها رغم كل شيء.

نعم..

كنت أنتظر أن أجد منه العطف أو الحنان.
عطفه عليّ كمذذذشردة، إن لم يستطع أن يمنحني عطف الولد
على والدته.
على الأقل هذه العملة هي الشيء الوحيد الذي حصلت عليه من
عزيز.
لقد كانت هذه العملة المعدنية رغم مرارة حصولي عليها، وقلة
قيمتها المادية؛ هي أغلى عندي من كل كنوز الدنيا.
أخذتها ومضيت.
مضيت باتجاه الحي.
نحو غرفتي.
فكرت بترك المكان.
بترك الحي من أجل عزيز.
من أجل ألا أسبب له أي شيء قد يعكر عليه صفو حياته
مستقبلاً.

وصلت إلى غرفتي..

أخذت نقودي التي كنت قد خبأتها لعزیز وأخذت منديل أمي.

آه يا أمي.. مازلت أشم رائحتك.

نظرت إلى غرفتي..

أحببت أن أتركها كما هي، فلعل أخرى تأتي إلى هنا في يوم ما؛
وتكون بحاجتها.

لا أتمنى لأي أخرى أن تكون في مثل ظروفي.

خرجت من غرفتي، وهممت بالمغادرة، فإذا به يناديني:

هل تريدین المغادرة يا سماح دون أن تودعيني؟

هل نسييتي العم حسن؟ لقد كنت أول شخص يجدك عندما جئت
إلى هنا، وأول شخص تفتحي عينيك عليه في هذه الحياة.

التفتُ إليه بتعجب! ثم واصل حديثه:

نعم يا سماح.

لقد ماتت أمك حين ولادتك، لكن ليس كما كنتِ تظنين من أنها
زوجة التاجر عبدالله؛ والذي كنتِ تظنين أيضاً بأنه والدك.

الأمر ليس كذلك يا سماح.

كُنْتُ في مهمة؛ في ذلك المستشفى حين ظهرتي على هذه الدنيا، وأخبرني الطبيب بأن والدتك قد توفيت قبل لحظات أثناء ولادتك.

كان اسمها فتحية.

لم يكن هنالك أي شخص في المستشفى معها، فوالدك حامد سُجن قبل ولادتك بشهرين، ولم يكن لديكم أي قريب.

كُنْتُ شابًا في بداية حياتي الوظيفية، أخذتكِ إلى حيث يسجن والدك، والذي قَبَّلَكِ، وأغرقكِ بدموعه، وسماكِ سماح.

طلب مني والدك بأن أضعكِ في أفضل دار أيتام في المدينة، فقد كان يصارع المرض داخل السجن، وعلى وشك أن يموت.

لقد مات حامد في اليوم التالي لولادتك.

عندما كنتِ في قسم الشرطة، وبعد وفاة والدك؛ زارنا عبدالله، رجل الأعمال المعروف من أجل إنهاء إجراءات دفن زوجته الثانية سامية.

وجدكِ في القسم، وأشفق عليكِ، وطلب بأن يأخذكِ معه، ويضمكِ لأسرته، فقد كان يتمنى بنتًا تكون أختًا لابنته نعمة،

لقد ولدت زوجته نورية بسمير قبل ثلاثة أشهر، ولذلك يمكنها أن ترضعكِ.

رأينا بأن ذلك هو أفضل لكِ.

تبنائك، واهتم بكِ، وسماكِ سماح كما كانت أمنية والدكِ الحقيقي، ومن خلال علاقاته سجلكِ باسمه في الوثائق الرسمية على أن أمكِ هي سامية، ولم يعلم عن حقيقتكِ سوى زوجته نورية، والتي هي كذلك أحببتكِ كثيرًا، لتصبحي أختًا لابنتها نعمة.

كبر أبناء التاجر عبدالله، وقبل وفاته علمتُ بأنه أخبر أبناءه عن حقيقتكِ، وأمرهم بالإحسان إليكِ، وكتب باسمكِ جزءًا من شركته، وأمرهم بتوريثكِ في بقية الممتلكات، لكنهم تخلوا عنكِ عند وفاة والدتهم كما رأيتِ، لأنهم لم يتقبلوا حقيقتكِ، رغم أنكِ أختهم من الرضاعة، لذلك تعذروا عن استضافتكِ بعد وفاتها، وباعوا المنزل قبل ذلك من أجل إخراجكِ منه.

صحيح أنهم لم يخبروكِ بأي شيء، لكنهم فضلوا هذه الطريقة للتخلي عنكِ.

أعرف بأنك قد عانيتي كثيرًا في حياتك يا سماح، ولا أعلم هل
أخطأنا عندما وافقتنا على تسليمك إلى عبدالله؛ دون دار الأيتام.
لقد فكرنا حينها بما هو خير لك، ولم أكن أرغب بأن تصارعي
الحياة وحدك، لكنك الآن وحدك على كل حال.

نظرتُ إلى العم حسن دون أن أنطق بكلمة.

لا أدري لِمَ لَمْ أصدم بما سمعته منه! فما أخبرني به ليس بالأمر
البسيط.

أن تعرف حقيقتك التي تجهلها عن نفسك.

أن تجد إجابة لسبب تخلي إخوتك عنك، كان يشغل بالك لأكثر
من عشرين عامًا.

ربما لأنه لم تعد تهمني هذه التفاصيل، أو ربما لأنه لم يعد
يمكنني تغييرها، أو لأنني قارنت قصتي بما يحدث لعزیز.

لقد علمتني الحياة كيف أتعامل مع صدماتها.

ما يهمني الآن هو عزیز؛ ولا شيء غير عزیز.

هل فعلاً كنت على صواب حينما قررت أن أخذه إلى بيت
سليمان، وأضعه هناك، أم كان من الخير له هو أن أبقيه معي؟

أن أبقيه في حضني لنصارع الحياة معًا؟ فلن يكون هنالك أرحم به مني.

آه يا عزيز..

لقد عشت مثلي بعيدًا عن أمك الحقيقية.

ماذا لو كنتُ بقيت في دار الأيتام؟ فنهاية حياتي في بيت التاجر عبدالله هو ما أعيشه الآن؟ هل سيكون الحال كذلك مع عزيز؟

هل النهايات تتأثر بالبدايات؟

ترتبط بها؟

أخذني الخوف على مستقبل عزيز، ولا أدري هل أبقى معه لأحميه، أم أتركه كما يريد، فحاله أفضل من حالي.

نعم حاله أفضل، فهو ليس لديه إخوة سيحاولوا التخلص منه، بل أن السيد سليمان لن يجد غير عزيز ليخلد له اسمه.

كذلك هو رجل، سيتخرج من الجامعة وسيعمل، ولن يجد معوقات تحول بينه وبين بناء أسرة جديدة والعيش بسلام، لذلك هذا أفضل له من أن أدخل حياته الآن لأغيرها له.

نعم.. نعم، هذا أفضل.

رحيلي عن حياته هو الحل.

أخذت أفكر.. نعم أفكر؛ وأنا أسير في طريقي، وأعلم بأنه لن ينتهي تفكيري، فعلى كل حال لن يكون هنالك حل يجعلني أرضى بمصيري أنا وعزيزي.

مضيت دون أن ألتفت، أو أنظر إلى الخلف.

مضيت دون أن أودع العم حسن.

ودون أن أمر بديكان العم صالح، وأودعه.

ودون توديع الدكتوراة صفية.

ولا جارائنا.

ولا العم نشوان.

ولا العم أحمد.

لم أمر على بيت سليمان.

ولا ملعب كرة القدم.

لم أتفقد حرارة سيارة عزيزي.

ولم أمر بمدارسه التي درس بها.

ولا حيث التقيت فارس.

قررت ترك كل ذكرياتي هنا، كما تركتها في مدينتي قبل أكثر من عشرين عامًا، إن كان يحق لي أن أسميها ذكريات بعد الذي سمعته من العم حسن، أو الضابط محمود.

لقد كان الضابط محمود هو الشخص الذي اعتقل والدي الحقيقي وتسبب في سجنه، لكنه بالتأكيد لن يخبرني بذلك.

يا ترى لم سجن أبي؟

هل كان مجرمًا؟ أم لأنه كان يصارع هذه الحياة من أجل البقاء؟

أم لأنه كان يطالب بحقه كإنسان؟

لا أعتقد بأنه مجرم، فلا يمكن لمجرم أن يسمى ابنته سماح.

أخذت أبكي.

أخذت أبكي ثم سألت نفسي..

هل صحيح بأنني لن أرى عزيز مرة أخرى؟

هل هذا هو آخر عهدي به؟

أخذت أفكر في ذلك..

أفكر في مستقبل عزيز وأنا أسير بين الشوارع.

مشيت، ولا أري كم هي المسافات التي قطعتها، ولا إلى أين
ستسير بي قدامي.

مر شريط الذكريات من أمامي.

عادت بي السنين إلى الوراء..

رأيت محل العطور الذي دخلته مع عائلتي، عائلة التاجر
عبدالله؛ عندما زرنا العاصمة قبل أكثر من خمسة وعشرين
عامًا، وتذكرت ذلك المحل وكأن رائحة العطر الذي اخترناه في
ذلك اليوم ما زلت رائحته تفوح في المكان.

اشتريت زجاجة العطر العتيقة؛ ببعض ما معي من مال،
وواصلت سيري.

رأيت كذلك المطعم الذي تناولت الطعام فيه مع فارس؛ عندما
عزمني ذات يوم.

تذكرت كيف انتهزت الفرصة، وتعمدت اختيار هذا المكان
لأتذوق وجبة عزيز المفضلة، فقد رأيت يتردد كثيرًا على هذا
المطعم، وكانت المرة الأولى التي تذوقت فيها اللحم منذ
سنوات، فقد أكلته آخر مرة في المدينة الشمالية في بيت العمه
صالحة قبل ولادتي بعزير.

شعرت بحنين، ولا أدري هل مازلت أحب فارس رغم خذلانه
لي؟ أم لا؟!

اغضت عياني، وواصلت سيرتي مرة أخرى.

رأيت متجرًا لبيع أدوات التجميل أمامي.

دخلته، ونظرت إلى ما فيه من أدوات.

لقد كنت أملك أفضل ماركاتها عندما كنت في الجامعة.

أه يا سماح.. هل ستعيد هذه المواد الآن لك حيوبتك،
ونضارتك؟

هل ستعيد لك ما أخذته الحياة منك؟

اشتريت من محل التجميل مجموعة متكاملة من المكياج؛
وخرجت، ثم دخلت إلى محل حلويات مجاور له، واشتريت
قطعة الحلوى التي كنت أحبها، وأمر من أمامها عند عودتي من
عملي عند الإشارات، ولم أستطع شراءها.

لا أدري لم فعلت ذلك واشتريت كل هذه الأشياء؟!

لم تصرفت هكذا؟!

هل قررت تعويض نفسي الآن؟

أخشى أن أكون قد تأخرت كثيرًا.

هل شعرت بالذنب بحق نفسي؟

هل أرى نفسي جانية بحق سماح؟ وهل كانت كل قراراتي بحق

نفسي خاطئة؟ أم أن من حولي جنى بحقي؟

هل أنا من تسببت بتعذيبها؛ كل تلك السنوات، وأحاول الآن أن

أصالحها؟ وأن أعوضها؟

هل سأستطيع تعويضك يا سماح؟

وهل ستمنحني الحياة فرصة لأصالح نفسي؟

آه يا سماح..

أخذت أفكر بكل شيء؛ وأنا أسير بين الشوارع، ولم أشعر إلا

وأنا في المستشفى.

أخبرتني الممرضة بأن سيارة عابرة قد صدمتني بعد خروجي من محل الحلويات، وقطعي للشارع، وأني كنت في غيبوبة منذ شهر ونصف، ثم أرادت أن تكمل حديثها وتخبرني عن التفاصيل.

أسكتها.. فلا تهمني تفاصيل الحادث، ولا أين حدث، ولا عن الأشياء التي اشتريتها، فقد كنت أريد أن أعرف منها شيئاً واحداً فقط:

كأنت معي قبل الحادث عملة معدنية، أين هي؟

نظرت إليّ الممرضة بتعجب!

فتحت فمها، ثم نظرت إلى زميلتها وقالت لها بأنه من الممكن أن أكون قد أصبت بالجنون.

تركوني، وذهبوا لإخبار الطبيب، والذي جاء بسرعة ليفحصني ويتأكد من حالتي.

بعد أسبوع خرجت من المستشفى.

لم يكن لي أي شيء عند الأمانات.

لم يجدوا معي أي شيء أثناء الحادث، فكل شيء فُقد في ذلك الوقت.

عدت لنقطة الصفر من جديد.

لا..

بل إلى أدنى من ذلك.

عدت ثقيلة الحركة، ومريضة.

خرجت من المستشفى، ولا أعرف إلى أين ستكون وجهتي.

قررت ألا أظهر في حياة عزيز.

أريده أن يعيش حياته؛ مستمتعًا بها، وأثق بأنه لن يحدث له مثل ما حدث لي.

لقد اخترت له مصيره منذ أكثر من ثمانية عشر عامًا دون أن أشعر أنني بذلك أنهى حياتي معه.

لقد قتلت نفسي بيدي.

بكيث على حالي مرة أخرى.

مضيت ما بين الشوارع.

كان الجو شديد البرودة، فشهري ديسمبر مازال في بدايته.

أخشى أن تمطر هذه الليلة.

البؤساء فقط هم من يهتمون بحالة الطقس، أما غيرهم فحالة الطقس بالنسبة لهم ليست إلا نوعاً من الرفاهية يجددون من خلاله حياتهم، ويحددون مكان نزعتهم.

فكرت بالذهاب إلى العمرة سالحة، وأخبرها بأنني قد تطلقت، وأن طليقي قد أخذ ابنه، لكنني لا أستطيع العمل عندها، فصحتي لا تسمح، ولا أريد ترك المدينة التي يعيش فيها عزيز، على الأقل أستطيع أن أراقبه من بعيد، وأعرف أخباره.

أن نتنفس أنا وهو من نفس الهواء، وأن أساعده لو احتاج لشيء، لذلك سأحاول البحث عن عمل.

كذلك أريد لسلمي بأن تعيش حياة هادئة عندها، فوجودي معها قد يجعل العمرة سالحة تستغني عنها؛ أو عن إحدى العائلات.

أخذت بالسير، وكانت خطواتي بطيئة، وكنت أشعر بالوجع كلما مشيت خطوات أكثر، فقد أخبرني الطبيب بأن عناية الله أنقذتني من إعاقة نصفية، وبأن تحسني صعب على كل الأحوال.

أخبرني بأنه لا بد عليّ من أن أعود إلى المستشفى خلال أسبوع للمراجعة، والبدء بجلسات العلاج الطبيعي، ودفع مصاريف تلك الجلسات.

واصلت طريقي، وبينما كنت أسير؛ وجدت دفترًا جديدًا ملقى على الأرض، يبدو بأنه لتلميذ قد سقط منه أثناء ذهابه إلى المدرسة.

أخذته.. ثم مشيت إلى أن دخلت دكانًا؛ وطلبت قلماً من صاحب ذلك الدكان، والذي قدم لي أيضاً زجاجة عصير شففة عليّ. ذهبت إلى الحديقة العامة القريبة من المستشفى.

تذكرت صديقتي سلمى.

وتذكرت نسرين.

كم مكثنا عند هذه الشجرة نتسامر.

كم أكلنا هنا..

وكم ضحكنا.

كم بكينا..

وكم لعبنا..

جلست على العشب، وأسندت ظهري على جذع تلك الشجرة الكبيرة.

شعرت بأن هذه الشجرة هي سندي الأخير؛ الباقي لي على هذه الحياة.

أخذت القلم، وأخذت بالكتابة على ذلك الدفتر.

كنت أكتب بسرعة، رغم آلامي..

ورغم ثقل يدي.

لا أدري لم أنا حريصة على أن أنهي روايتي هذه الليلة؟ والتي ختمتها بصفحتي الأخيرة:

أنا وأمثالي من الضعفاء..

أو المعدومين..

أو المهمشين..

أو المشردين..

أو العجبر..

أو حتى من اللقطاء؛ لسنا أولاد حرام، فقد كرم الله بني آدم.

ابحثوا عن أولاد الحرام بين من رسموا حكاياتنا، وحكايات كل المغلوبين على هذه الأرض.

ابحثوا عنهم بين من ظلمهم، فقط لأن الله ميزهم بشيء عن غيرهم.

هذه قصتي..

التوقيع: سماح حامد.

مشهد من خارج الدفتر:

مع صباح يوم شديد البرودة..

ومن داخل مبنى بالغ التحصين، عدد حراسه يفوق عدد مراجعيه، مكتوب على واجهته: قسم شرطة وسط العاصمة.

ومن داخل أحد مكاتبه الفاخرة، والتي يقف عند بابها الخارجي شرطي؛ نسي أن يجلب ابتسامته معه للعمل، يتلقى ضابط شاب، أضافت بدلته لوسامته هيبية.

عليها نُقِشَ اسمه بخيوط سوداء: علي أنور عبدالله، والذي يتلقى اتصالاً من العمليات؛ ليخبروه بأن عامل نظافة الحديقة العامة؛ وجد امرأة متجمدة، مسندة ظهرها على جذع شجرة؛ قد فارقت الحياة، وبجوارها دفتر يحمل توقيع سماح حامد، مكتوب على صفحته الأولى.. أولاد حرام.

النهاية

دار الرونق للنشر والتوزيع

أولاد حرام

محمد علي الديبسي



دار الرونق للنشر والتوزيع



دار الرونق للنشر والتوزيع

تصميم رحاب علي